

روائع الأدب العالمي للناشئين

ثلاثة رجال في قارب

جيروم ك. جيروم



Jerome K. Jerome



ثلاثة رجال في قارب

تأليف: جبريل لـ جبريل

ترجمة: جـ هورسلي

ترجمة: د. علي كامل شطانة

مراجعة: مختار الصبيحي

مقدمة

يتناول هذا الكتاب الفكاهى حكاية مغامرات ثلاثة
من الأصدقاء ومعهم كلبهم ، قرروا قضاء عطلتهم فى
رحلة نهريّة على صفحة نهر التيمس .

ومن الطريف أن أكثر الفكاهة فى هذا الكتاب
تتضمنها حكايات يحكيها الأبطال عن أشياء ومواقف
حدثت لهم وترتبط بصلة ما بما يقع من أحداث أثناء
رحلتهم . ولن تجد من السهل - دائما - معرفة أين تبدأ
هذه الحكايات أو أين تنتهى . فقط عليك أن تكون على
استعداد لقراءتها والاستمتاع بها .

وقد عاش « جيروم » - المؤلف - في الفترة من ١٨٥٩ حتى عام ١٩٢٧ وامتهن عدة مهن مختلفة قبل أن يحترف الكتابة ، فقد عمل في البداية كصراف في (بنك) ثم مديرا لمدرسة وأخيرا كممثل . وقد ظهر هذا الكتاب لأول مرة عام « ١٨٨٩ » ، الا أن المواقف الطريفة التي يحويها يمكن أن تحدث لأي منا في هذه الأيام . ومن أعمال مؤلفنا الشهيرة أيضا كتاب « أفكار تافهة لشخص تافه » ومسرحية « المرور بالطابق الثالث مرة أخرى » .

الفصل الأول

التخطيط لقضاء العطلة

كنا ثلاثة - نجلس فى غرفتى .. جورج وويليام
صمويل هاريس وأنا - ورابعنا الكلب مونتمور ينسى ..
وكنا جميعا نشعر بالتعب وقد اضطربت أعصابنا
فجلسنا أكثر من نصف ساعة نتشاكى ونتحدث عن مدى
سوء حالتنا .. أقصد حالتنا الصحية بالطبع ! ..

حكيت لجورج وويليام هاريس عما أحسست به من
تعب حال استيقاظى هذا الصباح . بينما وصف لنا
ويليام هاريس ما كان يشعر به عن الأم حين أوى الى
فراشه ليلة أمس .. أما جورج فقد وقف بجوار المدفأة
وقدم لنا عرضا تمثيلىا يصف الآمه التى كان يشعر بها

طوال الليل . ان جورج كثيرا ما كان يتوهم انه مريض
الا انه فى الحقيقة - وكما تعلمون - كان يتمتع بصحة
جيدة لاتشوبها شائبة !

فى هذه اللحظة طرقت مسز بوبيت الباب ، وسألت
ان كنا على استعداد لتناول العشاء الآن . فنظر كل
منا للآخر وابتسمنا فى مرارة وقلنا انه ربما كان من
الأفضل أن نحاول ابتلاع شئ من الطعام . واستطرد
هاريس بقوله : « ان القليل من الطعام يساعد دائما فى
السيطرة على المرض » . . . !

أحضرت المسز بوبيت (صينية) الطعام ووضعتها
على المائدة التى تحلقنا حولها وحاولنا أن نتناول شيئا
من اللحم والبصل . .

وبدا لى أنى مريض بالفعل . فبعد أقل من نصف
ساعة زهدت الطعام . . تصوروا بعد نصف ساعة
فقط ! . . وفوق هذا فلم أشعر بأدنى رغبة فى تناول أية
قطعة من الجبن !! . . المهم أننا - وبعد أداء هذا
الواجب الثقيل - جلسنا فى استرخاء وأشعل كل منا

غليونه وبدأنا نتناقش ثانية فى موضوع سوء حالقنا
الصحية !

لم يكن أى منا يعرف على وجه التحديد أية علة
أصابته ، الا أن الرأى الغالب هو أننا ربما كنا نعانى
من الملل والارهاق نتيجة كثرة العمل • فقال هاريس :
- ان مانحتاج اليه هو قسط من الراحة •
والاستجمام •

وأمن جورج على كلامه قائلاً :

- راحة وتغيير شامل •• ان تغيير المناظر والجو
واراحة العقل من التفكير فى العمل هو ما سيريح
أعصابنا المتوترة •

وافقت على ماقاله جورج ، واقترحت أن نسافر الى
مكان هادئ بعيد فى ركن ما فى العالم القديم بعيدا
عن تلك الأماكن التقليدية والتي تزدحم خلال العطلات ••
بل نسافر الى مكان ما شبه منسى نستمتع فيه بالشمس
والهواء العليل والهدوء بعيدا عن متناول يد عالمنا
المزعج ••

فعلق هاريس على كلامي معترضاً وقال : أن مكانا بهذا الوصف سيكون مكانا فظيعا . . . وأضاف : أنه يعرف مثل تلك الأماكن ، حيث يأوي الناس الى مضاجعهم بعد الغروب مباشرة ، وحيث لايمكنك الحصول على جريدة يومية . . . وان احتجت لطباق لغليونك فان عليك أن تمشى عشرة أميال قبل أن تعثر على من يبيعه لك .

وأردف هاريس قائلا بلهجة حازمة :

— لا . . . اذا كنتم تنشدون الراحة والاستجمام حقا فليس هناك أفضل من رحلة بحرية .

فاعترضت بشدة على هذه الفكرة وقلت ! ان الرحلة البحرية لاتكون مفيدة حقا الا اذا كنت ستقضى في البحر شهرين أو أكثر ، لا أسبوعا واحدا . . . وهي فترة قصيرة ستكون عديمة النفع . فما سيحدث هو انك ستبدأ الرحلة يوم الاثنين وانت تتمنى في قرارة نفسك الاستمتاع والترويح . . . وستقف على ظهر السفينة تلوح بكبرياء وافتخار لأصدقائك ومودعيك الواقفين على

رصيف الميناء ، ثم تشعل غليونك الكبير وتتمشى فى
خيلاء على ظهر السفينة يملؤك شعور بأنك كابتن «كوك»
وسير «فرانسيس دريك» «وكريستوفر كلومبوس» ..
كلهم معا فى شخصية واحدة وفى وقت واحد .

ولكن .. وفى بداية يوم الثلاثاء .. ستتمنى لو
انك ماركيت البحر قط ، وفى الأيام الثلاثة التالية ستتمنى
لو انك كنت ميتا قبل أن تقدم على ما فعلت !

ثم وفى صباح السبت تبدأ صحتك فى التحسن
بدرجة تسمح لك بتناول القليل من حساء اللحم
والجلوس على السطح تجيب بابتسامة ضعيفة على
أصحاب القلوب الرحيمة والذين سيسألونك عن
صحتك .

وفى صباح الأحد ستبدأ فى المشى وتناول الطعام .
وفى يوم الاثنين ، وبينما أنت تحمل حقيبتك فى يمينك
ومظلتك فى يسارك وتستعد للنزول على الشاطئ ..
فى هذه اللحظة فقط .. ستشعر أنك بدأت تستمتع
برحلتك البحرية التى أوشكت على الانتهاء فعلا !

اننى اذكر أن أخا زوجتى خرج فى رحلة بحرية
للنقاهاة ، فقطع تذكرة ذهاب وعودة من لندن الى
ليفربول وبالعكس بحرا . وعندما وصل الى ليفربول
كان كل همه هو أن يجد من يشتري منه تذكرة
العودة . .

ورجل آخر أعرفه خرج فى رحلة بحرية حول الساحل
الانجليزى لمدة اسبوع ، وقبل أن تبدأ الرحلة جاءه أحد
موظفى السفينة وسأله ان كان يفضل أن يدفع ثمن
وجبات الطعام كل وجبة على حدة فى وقت تناولها أم
يفضل أن يدفع مقدما لكل الوجبات على مدى الرحلة .

وفضل الرجل أن يدفع مقدما لأنه وجد أن الدفع
مقدما أقل تكلفة . فوجبات الاسبوع كله تتكلف مجمعة
جنيهين وخمسة شلنات . وتتضمن قائمة الطعام السمك
مع البيض فى الافطار ، بينما يقدمون فى الغداء الذى
يبدأ فى الواحدة ظهرا ، عدة أطباق للاختيار من الأطعمة
الساخنة والباردة ، ويبدأ العشاء فى السادسة مساء
ويشمل الحساء والسمك واللحم وخاصة اللحم البقرى
يتبعه قطع من لحم البط والدجاج والحلويات والجبن

والفاكهة .. ثم بعد هذا وجبة خفيفة من شرائح اللحم
فى العاشرة مساء .. وعندئذ وافق صديقى ولعابه
يسيل على دفع الجنبيين والخمسة شلنات فقد كان أكولا
يحب ما لذ وطاب من أصناف الطعام .

وحان موعد الغداء بينما كانت السفينة تقترب من
« شيرنيس » .. إلا أن صديقى لم يشعر أنه جوعان
لدرجة التى كان يتصورها لهذا اكتفى بتناول قليل من
اللحم المسلوق وبعض الفاكهة « والكريمة » ..

وعضى صديقى بعد الظهر وهو يفكر مليا فى هذه
الأشياء ، فتارة يبدى له أنه لم يأكل شيئا غير اللحم
المسلوق والفاكهة منذ أسابيع وتارة يحلم أنه لا مفر من
أن يعيش على الفاكهة والكريمة لعدة سنوات

وفى السادسة جاءه من يخبره بأن العشاء جاهز ..
ولم يثر هذا التنبيه الشهى فى نفسه أدنى رغبة ، إلا أنه
أخذ يفكر فى الجنبيين والخمسة شلنات التى دفعها ثمنا
لكل الوجبات فقام بصعوبة وتوجه متثاقلا لغرفة
الطعام ..

وصادفته عند نهاية السلم رائحة ذكية لأرائب مطهية
بالبصل ملفوفة برائحة السمك المقلي والخضروات ..
وجلس صديقى الى مائدته وجاءه النادل وسأله :

- عمت مساء ياسيدى .. ماذا تطلب ؟

فما كان من صديقى الا أن قال :

- احملنى خارج هذا المكان بسرعة .. !!

وبسرعة حملوه وصعدوا به الى السطح وتركوه
منتثيا على (درازين) السفينة حيث أفرغ ما فى جوفه
فى البحر .

وطوال الأيام الأربعة التالية عاش صديقى حياة
الزاهد مكثفيا بقطعة من الخبز الجاف وقليل من الماء
وفى بداية يوم السبت بدأ يشعر بتحسن طفيف فأكل
القليل من الزبد مع الخبز وشرب القليل من الشاي ،
وفى يوم الاثنين ملأ معدته بحساء الدجاج . وفى يوم
الثلاثاء غادر السفينة ووقف على رصيف الميناء ينظر
اليها بحسرة وهى تسير مبتعدة ويقول فى نفسه :

- هاهي ترحل بعيدا .. حاملة جنين وخمسة
شلنات ثمننا لطعامي الذي لم ولن أكله أبدا !!

ولهذا - ياسادتي - فأنا أرفض القيام برحلة بحرية
ليس من أجلى أنا بالطبع ، فأنا لم أصب مطلقا بدوار
البحر ، ولكنى أخشى أن يصاب به جورج .. ولكن
جورج قال أنه لا يخشى هذا الأمر هو بدوره ولكنه
ينصحنا بعدم القيام بمثل تلك الرحلة لأنه يخشى على
هاريس من دوار البحر .. فقال هاريس أنه بالنسبة له
شخصيا فقد كان دائما يتعجب من هؤلاء الذين يصابون
بما يسمى بدوار البحر .. وكم تمنى أن يجربه ولو
مرة واحدة ولكنه - للأسف !! - لم يصب به إطلاقا ..

ثم أخذ يحكى لنا كيف أنه عبر المانش الى فرنسا
وكيف كان البحر هائجا جدا لدرجة أن كل المسافرين
رقدوا اعياء في حجراتهم بينما كان هو والقبطان
الوحيدين اللذين لم يصابا بالاعياء .. أحيانا كان هو
والضابط الثانى ، وأحيانا هو وأحد البحارة ، ولكن
دائما كان هناك هاريس وشخص ما آخر لم يصبهما

دوار البحر . ثم أصبح هاريس وحده المعاقى بينما
أصاب الاعياء كل من كان على ظهر السفينة !

أوه انه لأمر يثير الفضول والعجب .. ذلك أن
أحدا لا يصيبه دوار البحر مادام كان واقفا على
الشاطئ !!

المهم .. انتهى الأمر الى أن قال جورج :

— دعونا نذهب فى رحلة نهريّة .

وأضاف أننا سنستمتع بالهواء الطلق والرياضة
البدنية بالإضافة للهدوء والراحة النفسية ، كما أن
كثرة المناظر الجميلة المتغيرة التى سنمر عليها ستريح
عقولنا وتنعشها وسيجعلنا المجهود البدنى نأكل بشهية
وننام باستغراق ..

وعقب هاريس بقوله أنه لا يعتقد أن جورج يحتاج
لشئ يجعله ينام أكثر مما ينام بالفعل والا وصل الأمر
لحد الخطورة ، خاصة وأن اليوم لايزيد على أربع
وعشرين ساعة ، وعلى أية حال لو أنه نام أكثر مما

ينام الآن فانه يكون كالميت مما سيوفر تكاليف اعاشته
ومؤنقه ..

وقال هاريس فى النهاية أن الرحلة النهرية تناسبه
تماما ، كما أنها تناسبنى أيضا .. وامتدحنا فكرة
جورج النيرة بلهجة بدا منها اندهاشنا لورود مثل
تلك الفكرة على عقل جورج ..

الوحيد الذى لم تعجبه الفكرة هو «هونتمور ينسى»
وبدا وكأن لسان حاله يقول لنا :

— ان كل شىء على مايرام بالنسبة لكم أما أنا ،
فلا يعجبني الأمر برمته ، فأنا لايهمنى تغيير المنظر
ولا الهواء العليل كما أنى لا ادخن ، واذا قدر لى أن
أرى فأرا فانكم لن تسمحوا لى بمطاردته ، وان غلبنى
النوم مرة فانكم قد تلقون بى فى النهر بسبب حركتكم
فى القارب ، ولهذا ياسادة .. ان سألتمونى فسأجيب
بأن الأمر كله .. حماقة .. !!

لكننا على أية حال كنا ثلاثة مقابل واحد وبهذا
تمت الموافقة على فكرة جورج ..

:: سحر الليل :: ليلاس ::
www.liilas.com/vb3

الفصل الثانى

التخطيط لقضاء العطلة (٢)

فحصنا الخرائط وبدأنا تناقش برامجنا لقضاء
لعطلة . . فى البداية حددنا موعد الانطلاق - وقررنا
أن يكون صباح السبت القادم ، كما قررنا أن تبدأ الرحلة
من كنستون التى سنذهب إليها أنا وهارىس لنأخذ منها
لقارب الى « تشيرتسى » حيث ينضم إلينا جورج الذى
من يتمكن من مغادرة المدينة قبل العصر ، فجورج يذهب
لفوم - أقصد العمل ! - فى البنك من الساعة العاشرة
صباحا وحتى الرابعة من بعد الظهر ، فيما عدا يوم
السبت الذى يوقظونه فيه فى الثانية ويلقون به الى
الخارج .

وبعد تحديد زمان ومكان ابتداء الرحلة ظهر لنا
سؤال هام ..

ترى هل نعسكر فى الخلاء أم نبني كل ليلة من ليالى
الرحلة فى الفنادق ؟ • وقد حبذنا انا وجورج - فكرة
أن نعسكر فى الخلاء حيث الحرية والطبيعة البرية •

ففى الخلاء وعند الغروب ، تنسحب خيوط الشمس
الذهبية ببطء الى قلب غلالات السحب الحزينة بينما
تتوقف الطيور الصداحة عن الغناء وكأنها جمع من
الأطفال كسرى القلوب ..

ومن قلب الغابات الداكنة على ضفتى النهر ،
يخرج جيش الليل وتزحف الأشباح الرمادية فى صمت
وتسير بأقدام خفية فوق حشائش النهر الراقصة ، بينما
يرتدى الليل تاجه السحري وينشر أجنحته السوداء
فوق العالم المظلم ، ومن قصره السحري الذى تضيؤه
النجوم المتألثة يحكم العالم •

عندئذ ، ننساب بقاربنا الصغير الى بقعة هادئة
وتنصب خيمتنا ونجهز عشاءنا .. وبعد أن نتناول

العشاء . نجلس فى استرخاء ويشعل كل منا غليونه
ونتجاذب أطراف الحديث فى سعادة . بينما النهر فى
لحظات صمتنا . . يلعب حول قاربنا الصغير ويهمس
بحكايات غريبة وقديمة أو يغنى بصوت حالم أغنيته
الأزلية الأبدية .

هكذا وبينما ينحنى القمر ويطبع قبلة أخوية على
خد النهر ويحضنه بأذرعہ الفضية ، نراقب نحن النهر
وهو يسير فى رحلته الأبدية يغنى أغنيته الخالدة حتى
يمثل بين يدي ملكه البحر . .

ونبقى على هذه الحال حتى تتلاشى أصواتنا
وتنطفئ الغلايين ويملؤنا - نحن الشباب الثلاثة
العاديين جدا - شعور غريب بأفكار نصف حزينة . .
نصف جميلة . . ثم لا نعود الى الاهتمام بالكلام . .
ثم نضحك قليلا .

وينفض كل منا رماذ غليونه ويقول لزميليه :

- تصبحان على خير !!

بعدها نروح فى نوم جميل تطل علينا نجوم السماء

اللامعة ، ونحلم .. نحلم بأن العالم قد عاد طفلا ..
بكرا من جديد !

هكذا تخيلنا معسكرنا في الخلاء أنا وجورج
ولكن هاريس سألنا :

— وماذا سنفعل لو أن السماء أمطرت ؟

أوه .. انه لمن المستحيل أن تثير قلب هاريس
وعقله ، انه لا يحمل في نفسه أدنى قدر من الشاعرية ،
ولو حدث ورأيت عينيّه ذات مرة تفيضان بالدمع ،
فاعلم أنه قد أكل لقوه بصلة نيئة .

ولكن ، وعلى أية حال كانت ملاحظته في محلها —
من وجهة النظر العملية على الأقل — فمعسكر في الخلاء
تحت المطر لن يكون بالشئ المبهج أو الذي يبعث على
الارتياح .

فتخيلوا ، الوقت مساء وأنتم مبتلون والماء يرتفع
داخل القارب لمسافة بوصتين وكل شئء حولكم غارق
في الماء . وبعد جهد تعثرون على مكان ما على ضفة
النهر ليس موحلا بنفس درجة غيره من الأماكن ،

فترسون عنده ، وتخرجون خيمتكم ويبدأ اثنان منكم
فى نصبها .

ستجدون الخيمة مبتلة وثقيلة فتشذكما الى أسفل
وتلتف حول راسيكما وتصبكم جميعا بالحنق والضيق ،
بينما المطر ينهمر بلا انقطاع . . ان عملية نصب الخيمة
عملية صعبة حتى فى الجو الجاف ولكنها تتحول الى
 مهمة مستحيلة على أى انسان فى مثل هذا الطقس . .
وبعد قليل تكتشف ان زميلك بدلا من أن يساعدك ، يلعب
معك لعبة الحلقى ، فلا تكاد تثبت الخيمة من ناحيتك
حتى يجذب هو بشدة من ناحيته فينزعا فتصرخ فى
غضب قائلا :

– هيه ماذا تفعل ؟ !

فيرد عليك هو :

– ماذا تفعل أنت ؟ ارخ الطرف الذى ناحيتك . .

أوه لا تستطيع هذا ؟ !

فتصيح فيه :

– لاتجذب . . انك تجذبها خطأ أيها الأحمق !

فيرد عليك :

- لا ٠٠ أنا لا أجذبها خطأ

ويشد بقوة أكبر وهو يصيح :

- أرخ أنت الطرف الذى عندك !

فتزمجر قائلاً :

- اننى اقول لك أنك تجذبها خطأ !

ثم تجذب أنت جذبة قوية تنزع بها كل جوانب الخيمة
من ناحيته فتسمعه يزمجر ويقول لنفسه :

- أوه ، يالهذا الحمار !

ويجذب هو جذبة قوية تنزعها من ناحيتك تماماً ،
وفى الحال تبدأ فى الدوران لتذهب اليه وتخبره برأيك فيه
وفى عمله فى نفس الوقت الذى بدأ هو فيه بالدوران
فى نفس الاتجاه ليشرح لك وجهة نظره ومن ثم يتبع
كل منكما الآخر وتأخذان فى الدوران فى دائرة مغلقة ،
وبينما كل منكما يزداد غضبا وسخطا تسقط الخيمة فى
الوحد .

وأخيرا وبطريقة أو بأخرى تنصبون الخيمة وتبدأون
فى انزال أشياءكم الى الشاطئ وبالطبع تفشل كل
محاولاتكم فى الإبقاء على خشب التدفئة صالِحاً للاشتعال
.. ومن ثم لا يكون أمامكم إلا اشعال الموقد والجلوس
حوله طلباً للدفء !

أما العشاء . فستجدونه يتألف أساساً من .. ماء
المطر ! .. نعم ماء المطر ! فالخبز مشبع بالماء وشرائح
اللحم غنية به والمربى والزبد والملح والقهوة وكل شئ ..
كل شئ ممزوج بماء المطر وقد تحول الى نوع
ما من (الشورية) .. !

وبعد العشاء لن تستطيعوا التدخين . فالطباق مندى
ولا يصلح للاشتعال . وأخيرا وعندما تذهبون للنوم ،
ستحلم أن فيلا ضخما قد جلس فجأة فوق صدرك ، أو
أن بركانا رهيبا مثل « فيزوف » قد انفجر وألقى بك
الى قاع البحر بينما الفيل لا يزال جاثما على صدرك
بكل هدوء ودعة . فتصحو مفزوعا يملؤك شعور بأن
شيئا مروعا قد حدث . بل تلح عليك فكرة أن يوم القيامة
قد حل موعده وقامت القيامة فعلا !

ولكن سرعان ماتعرف أن هذا لم يحدث وأن ما حدث هو أنه قد مر عليك وأنت نائم جماعات من اللصوص والسفاحين أو أية مصيبة أخرى ، المهم وهذا كل ما ستعرفه هو أن الألفا من الناس قد مروا عليك وركلوك بأقدامهم وأنتك لاتستطيع التنفس من شدة الألم ..

هناك شخص آخر يعانى من مشكلة هو الآخر ، وأنيته الضعيف يأتيك من تحت فراشك . وعاقدا العزم - بعد كل هذه الأحداث - على الدفاع عن حياتك فانك ستأخذ فى الحركة المتشنجة دافعا برجليك وقدميك فى كل اتجاه تصرخ بكل ما أوتيت من قوة . أخيرا يتحرك شيء ما مفرجا عنك فتشعر برأسك وقد خرجت ثانية للهواء الطلق وقريبا منك سترى قاتلك وقد قبع نصف عار فى انتظار أن يجهز عليك وتشرع فى الاستعداد لمعركة حياة أو موت . وفجأة .. تكتشف أنه لم يكن سوى جيم !

ويصبح هو مندهشا وقد تعرف عليك فى نفس اللحظة :

- أوه ، أوه أنت ؟

فتجيبه وأنت تفرك عينيك !

– أجل ؟ ماذا حدث ؟!

– يبدو أن الخيمة قد انهارت فوقنا – على ما أعتقد

ولكن أين بيل ؟

وترفعان عقيرتيكما سويا بالنداء على بيل فتشعر
بالأرض تهتز تحتك والصوت الضعيف الذي كنت قد
سمعتة من قبل يصرخ من تحت الاغطية :

– انهض من فوق رأسى • ألا تريد أن تتحرك ؟

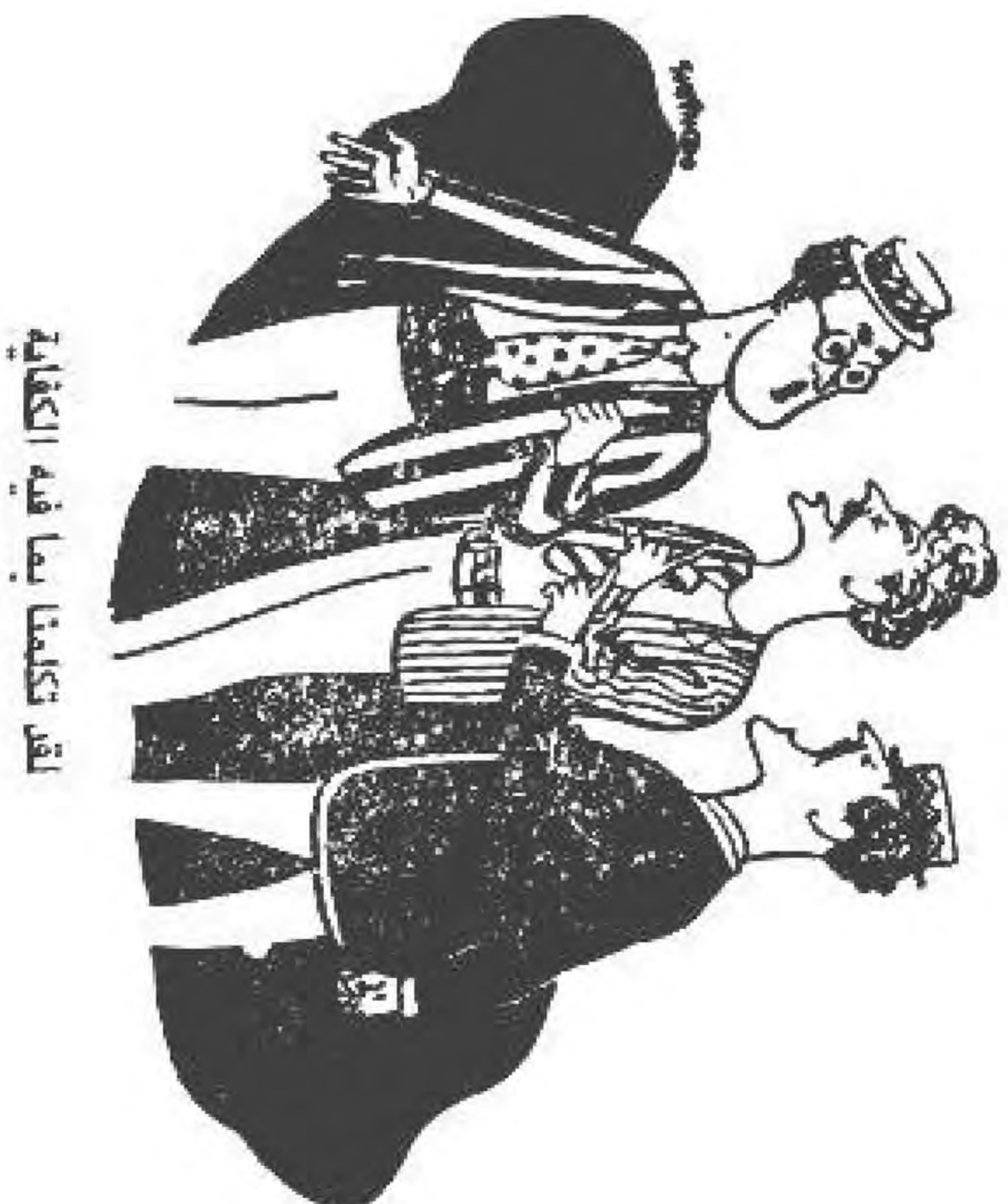
ثم يضطرب جسد « بيل » في تشنج عنيف ويخرج
من تحتك شخص منهار وقد غطاء الطين ويصيح معتقدا
أن كل ما حدث كان مديرا ••

في الصباح التالي ، ستصبحون غير قادرين على
الكلام نتيجة لنزلة البرد التي أصبتم بها في الليلة
السابقة • كما أنكم ستشعرون جميعا بالضيق من
بعضكم البعض وسيتكلم كل منكم مع زميله في غضب
واضح ولكن بهمس مؤلم – نتيجة مرض الحنجرة –
طوال وقت تناولكم الافطار •

من أجل كل هذا فقد قررنا أن ننام في الخلاء أن
كان طقس الأمسية جميلا وأن نذهب لنبيت في نزل أن
كان الطقس عكس ذلك أو أن كنا نرغب في بعض
التغيير .

وقد رحب مونتمورينسي بهذا الرأي الذي انتهينا
اليه بشكل واضح . انه لا يجب أن يبقى هادئا أو وحيدا
انه يفضل أن تكون الحياة صاخبة . انك ان نظرت الى
وجه مونتمورينسي فسيملوك احساس بأنه روح
سماوية تجسدت في جسد كلب صغير ، لدرجة أن وجهه
البريء عادة ما كان يستثير الدموع من عيون السيدات
العجائز والرجال المتدينين .

ولكن برغم كل هذا ، فانا لم أستغرق وقتا طويلا
لاكتشف فداحة الخطأ الذي كانوا يقعون فيه في فكرتهم عن
هذا الكلب الصغير . فذات مرة كان على أن ادفع ثمن
دسنة من الدجاج قتلها هذا الكلب البريء النظرات
وكثيرا ما كان على أن أجذبه بقوة من رقبتة ورجله
لأستخلصه من معاركه العنيفة من كلاب الشارع . بل
ان عندي قطعة ميتة أحضرتها الى إحدى العائلات وهي



لَقُلْ تَكَلَّمْنَا بِمَا فِيهِ الْكُفَايَةُ

تصب على اللعنات وتصفنى بأنى قاتل وفى مرة أخرى
مثلت أمام المحكمة فى دعوى رفعها على جارى لعدم
استطاعتي السيطرة على كلبى الشرس الذى حبس
جارى فى (عشة الفراخ) على مدى أكثر من ساعتين
فى احدى الأمسيات الباردة . وبعد كل هذا بدأت أعيد
النظر فى الفكرة التى تقول أن مونتمورينسى قد منح
روحا سماوية من الجنة !

وبعد الاتفاق على طريقة وأماكن النوم أثناء الرحلة
لم يعد أمامنا سوى أن نناقش سويا قائمة الأشياء التى
يجب علينا أن نحملها معنا فى رحلتنا . . ولكننا ما أن
بدأنا نتجادل فى هذا الأمر حتى بادرننا هاريس بقوله
أننا قد تكلمنا بما فيه الكفاية فى ليلة واحدة وأن مشكلتنا
الجديدة يمكنها أن تنتظر حتى الليلة القادمة . .

الفصل الثالث

دراسة احتياجات الرحلة

والتقينا في المساء التالي لنتابع حوارنا حول برنامج رحلتنا ، في البداية قال هاريس :

– والآن يجب أن نتفق أولاً على ما سنأخذه معنا من مؤن ومستلزمات ومعدات • وعلى هذا أقترح أن تحضر ورقة لندون بها الأشياء يا (جى) ، ولتلق أنت نظرة على ما بالخزانة من مواد البقالة يا جورج • وليحضر لى أحدكم قلمًا وسأضع أنا قائمة بما سنأخذه معنا •

هكذا هو دائما • ان هاريس على استعداد دائم

لتحمل تبعة كل شيء ، ثم . . القائه على كامل
الآخرين . .

وهو في هذا يذكرني بعمى « بودجر » ، فعندما
يتطوع عمى بودجر للقيام بعمل ما يكون المرادف هو
الكثير من الاضطراب واللبطة . .

في يوم من الأيام جاءتنا لوحة من عند صانع
الاطارات بعد أن صنع لها اطارا جميلا ووضعناها في
حجرة الطعام على الأرض في انتظار من يعلقها على
الحائط . وعندما تساءلت العمدة ماريا عما يجب أن
نفعل لنعلقها على الحائط أسرع العم بودجر قائلا :

– أوه ، أتركى لى هذا الأمر ، لاتشغلى بالك على
الاطلاق . سأقوم أنا بهذا العمل . .

ثم خلع معطفه وشرع في العمل . فأرسل الفتاة
للخارج لاحضار بعض المسامير ، ثم أرسل أحد الأولاد
خلفها ليخبرها عن حجم المسامير التي يجب احضارها
وهكذا وتدرجيا ألقى عمى بتعليماته وأوامره لكل من
بالبيت ليقوم كل منهم بعمل شيء ما . . وبعد هنيهة
صاح :

– والآن ناولنى أنت « الشاكوش » .. حسنا .
وانت ناولنى (المسطرة) ياتوم ، أيضا سأحتاج لكرسى
المطبخ .. أما أنت يا جيم فأسرع الى السيد « جوجلز »
وأطلب منه أن يعيرنا سلمه الخشبى . أوه ، لا تبتعدى
عنى يا ماريا لأننى سأحتاج لمن يمسك لى المصباح .

واستمر عمى فى صياحه قائلا :

– عندما تعود الفتاة من الخارج بالمسامير ، عليها
أن تخرج ثانية لاحضار سلك يصلح لتعليق اللوحة .
أما توم .. أين توم ؟ .. توم ! تعال هنا ، سأحتاجك
لترفع معى اللوحة .

وهنا ترك عمى اللوحة من يده فسقطت وخرجت
الصورة عن الاطار وحاول عمى انقاذ الزجاج فجرحت
يده . فأخذ يثب فى الغرفة فى كل اتجاه باحثا عن
منديله . وبالطبع لم يجد المنديل لأنه كان فى جيب
معطفه الذى خلعه منذ دقائق .

وهكذا كان على كل من بالبيت أن يتركوا ما بأيديهم

ليتفرغوا للبحث عن معطف عمى الذى اختفى وفي
جيبه المنديل !

هذا بينما كان عمى يثب في كل مكان صائحا مويخا
كل من بالبيت قائلا بصبر نافذ :

الا يوجد انسان واحد في هذا البيت يعرف أين
وضعت معطفي ؟ أه ياربي اننى لم أر في حياتي قوما
كهؤلاء ! ستة أفراد ولا يستطيعون العثور على مجرد
معطف ! .. أوه لقد خلعتة من خمس دقائق فقط .

ثم نهض واقفا ليجد أنه كان جالسا على معطفه
قصاح .:

- أوه ! يمكنكم التوقف عن البحث ، لقد وجدته -
أنا بنفسى - أوه .. لقد كنت كمن يطلب من القط
البحث عن أشياءه عندما طلبت منكم العثور على
معطفي !

وبعد أن قضى نصف ساعة في ربط وتضميد أصبعه
المجروح ، وبعد أن جىء بزجاج جديد للاطار وتم

احضار الأدوات والسلم والكرسى والشمعة ، شرع
عمى فى محاولة أخرى بينما وقفت العائلة بكامل هيئتها
على شكل نصف دائرة حوله فى حالة الاستعداد القصوى
لتقديم العون عندما يطلب منها .

فكان على اثنين منا الإمساك بالكرسى وعلى
الثالث أن يمسك بعمى فوق الكرسى ويساعده ، أما
الرابع فعليه أن يناوله المسمار وعلى الخامس أن يناوله
(الشاكوش) .

وهم عمى بالعمل ، فأمسك بالمسما . ولكنه سقط
من بين أصابعه فقال عمى فى ضيق :

— أوه هكذا ! ماكان ينقصنا سوى ضياع المسمار !

وبالطبع كان على الجميع أن ينحنوا على الأرض
بحثا عن المسمار بينما وقف العم « بودجر » فوق
الكرسى متسائلا ان كان عليه أن يقضى كل الليل واقفا
هكذا فى انتظار المسمار !

وأخيرا تم العثور على اسمار وفى نفس اللحظة
أضاع عمى (الشاكوش) فأخذ يصيح :

– أين المطرقة ؟ ماذا صنعت بالمطرقة ؟ بالسما
سنة أفراد تقفون هكذا بغباء ولا تعرفون أين وضعت
المطرقة ؟ !

أخيرا وجدنا مطرقة عمى ، ولكنه كان قد افتقد
مكان العلامة التي وضعها على الحائط حيث يجب أن
يثبت المسمار ، ومرة أخرى كان على كل منا أن يبحث
عن مكان العلامة فكنا نصعد واحدا واحدا بالدور فوق
الكرسى ونحلق في الحائط بحثا عن العلامة . وبالطبع
كان كل منا يعثر على مكان مختلف للعلامة وكان عمى
يصيح في وجه كل منا متهما إياه بالغباء وأمرأ إياه
بالنزول فورا من فوق الكرسي .

ثم أخذ عمى المسطرة وأعاد القياس مرة أخرى
ووجد أن بقعة التثبيت يجب أن تكون على بعد يساوى
نصف المسافة التي تساوى واحدا وثلاثين بوصة وثلاثة
أثمان البوصة من زاوية الحائط ، وحاول عمى حساب
هذه المسافة في رأسه وكذلك فعلنا جميعا . ثم انتابنا
جميعا موجة من الضحك السافر – لم نظهرها بالطبع

وفى ختم هذه (اللخطة) تسينا الرقم الأصلي ، وكان
على العم بودجر أن يعيد القياس من جديد

هذه المرة استعمل عمى أنشودة صغيرة ، وبينما
هو ينحنى من فوق المقعد بزاوية مقدارها خمس وأربعين
درجة محاولا الوصول لنقطة تبعد ثلاث بوصات عن
أقصى ما يستطيع أن يصل اليه سقطت الانشودة من يده
ووقع عمى فسقط فوق البيانو محدثا موسيقى حادة
ودويا هائلا !

أخيرا استطاع العم بودجر تحديد بقعة التثبيت .
ووضع رأس المسمار عليها بيده اليسرى ، وأخذ المطرقة
بيده اليمنى ، وعند أول طرقة طرقت المطرقة على ابهامه
فقفز بها وهو يصرخ من الألم ، فسقطت على أصابع
قدم أحد الواقفين . .

وبهدوء شديد أبدت العمة ماريا ملاحظة هامة
لعمى بودجر وهى أن عليه أن يخبرها فى المرة القادمة
أن هو أراد القيام بعمل ما فى البيت حتى تتركه له
أسبوعا تقضيه عند أمها .

على أية حال ، حاول عمى محاولة ثانية ، وفى
الطريقة الثانية اخترق المسمار دهان الحائط واندفعت
الطريقة خلفه بينما ألقى بالعم بودجر فى اتجاه الحائط
باندفاع كان كافيا لسحق أنفه ..

وكان علينا للمرة الألف أن نحضر المسطرة
والأنشودة لكى يصنع العم بودجر ثقبا جديدا . وعند
منتصف الليل تقريبا تم تعليق اللوحة ولكنها - للأسف -
لم توضع فى مكانها الصحيح ولا كانت مثبتة جيدا .
بينما بدا الحائط حولها - لسافة ياردات - وكأنه كشط
بشوكة الحديقة .

وارتسمت نظرات الحزن على وجه الجميع عدا العمل
بودجر الذى بدا فخورا بما صنع وقال فى اختيال وتباه .

- ها هى اللوحة فى مكانها . ان بعض الناس
يستأجرون عمالا ليقوموا بأعمال صغيرة كهذه .

ان صديقنا هاريس سيصبح من ذلك النوع من
الرجال مثل عمى ، وقد أخبرته ذات مرة برأى هذا .
ولهذا قلت أننى لا أستطيع أن أتركه يتحمل عبء العمل

كله وحده . لهذا فساقوم أنا بمهمة الاشراف على العمل
بالكامل ويكفى أن يقوم هو باحضار الورقة والقلم
والقاء نظرة على ما بالخزانة من بقالة بينما يقوم جورج
بتدوين ما سنمليه عليه . .

وبدأنا في تدوين القائمة ، ولكن كان علينا أن نمزق
القائمة الأولى بعد أن أتممناها ، ثم القيناها في سلة
المبملات ، لأننا اكتشفنا أن نهر التيمس لا يتسع لمركب
بالحجم الذي يسمح بحمل كل ماتضمنته القائمة وكنا
نعتبره من الأساسيات .

وبعد أن مزقنا القائمة أخذنا نتبادل النظرات حتى
قال جورج :

– أوتدرون ؟ . . لقد كنا نسير في الاتجاه الخاطيء
اننا لايجب أن نفكر فيما نستطيع أن نأخذه معنا بل فيما
لا يمكننا الاستغناء عنه .

ان جورج يصبح في أحيان كثيرة رزينا ومعقولا .
كانت ملاحظته مملوءة بالحكمة ، ليس فقط فيما يخص
هذه الحالة ، بل انها تمد ظلال حكمتها على كل مايجب

أن نفعله طوال ابحارنا فى نهر الحياة . . فكثير من الناس عندما يسافرون بالمراكب يحملون معهم من الأمتعة مايمكن أن يتسبب فى اغراق المركب ، بسبب أمتعة غير مهمة ولا داعى لحملها اطلاقا . . دع قارب حياتك يسير خفيفا محملا فقط بما تحتاجه بالفعل ، مثل بيت متواضع به بعض الامتعة البسيطة وصديق أو صديقان يكونان صديقين بمعنى الكلمة . ثم انسان تحبه ويحبك ، وقطة أو كلب صغير . . غليون أو اثنان اذا كنت من المدخنين - ومايكفيك لتأكل وتشرب . . وبهذا ستجد أن قاربك أصبح سهل القيادة وستجد وقتا للعمل ووقتا لتنهل من شمس الحياة الدافئة .

تركنا القائمة ليضعها جورج الذى بدأ بقوله :

- لن نأخذ خيمة فالقارب الذى سنأخذه له غطاء من القماش وهو أبسط من الخيمة وأكثر راحة ورفاهية .

وقد بدت فكرة معقولة فوافقنا عليها . وقال جورج فى هذه الحالة فسنأخذ غطاء لكل منا ، ومصباحا وبعض الصابون ، فرشاة ومشط واحدنا لنا ثلاثتنا

وفرشاة أسنان لكل منا ، وبعض أدوات الحلاقة
ومنشفتين كبيرتين للحمام . . . كنا نتكلم وكأننا سنصبح
فى النهر صباح كل يوم . فقد كان جورج يقول أنه من
المتع حقا أن نستيقظ مبكرين فى الصباح ونأخذ
غطسا فى ماء النهر الرائق المنعش . . وقال هاريس أنه
لا يوجد أجمل من السباحة قبل الافطار حتى تشعر بالجوع
وتقبل على طعام الافطار بنهم . . وقد علق جورج على
هذا بقوله أنه اذا كانت السباحة فى النهر ستجعل
هاريس يأكل أكثر مما يأكل الآن ، فانه سيعترض على
نزوله الماء بكل قوته . وفى النهاية اتفقنا على أن نأخذ
معنا ثلاث مناشف واحدة لكل منا حتى لا يقف أحدهنا فى
انتظار الآخر !

أما بالنسبة للملابس ، فقد قال جورج أن ستريتين
وسروالين سيكونان كافيين ، حيث أنه يمكننا أن نغسل
ملابسنا فى ماء النهر ان هى اتسخت . . ولم يكن
خيالى أو خيال جورج قويا لدرجة تستوعب كلام جورج
فكيف يتسنى لثلاثة رجال محترمين لا يعرفون شيئا عن
الغسيل أن يغسلوا ملابسهم . . وأين ؟ فى مياه نهر
القيس ! . . وبقطعة صغيرة من الصابون ! . . وكان

قدرنا أن نعلم بعد أسابيع قليلة وبعد أن فأت
الأوان • أن جورج نفسه كان يعلم القليل عن هذا
الموضوع • إذا تسنى لك أن ترى هذه الملابس بعد هذا •
ولكن على أية حال فإن هذا الكلام يسبق الأحداث •

نصحتنا جورج أن نأخذ معنا الكثير من الملابس
الداخلية والجوارب ، وأيضا الكثير من المناديل حيث
أنها ستكون مفيدة في تغليف الأشياء وزوجا من الأحذية
الجلدية ذات الرقبة بالإضافة لأحذية القارب حيث أننا
قد نحتاجها إذا شعرنا بضيق أو علل من أحذية
القارب !

الفصل الرابع

مشاكل الطعام وتحريم الأمتعة

وبدأنا نناقش مسألة الطعام • فقال جورج :

ـ نبدأ باحتياجات وجبة الافطار (هكذا جورج دائما ، عملي ومنظم) • سنحتاج لقلادة و ...

لكن هاريس قاطعه قائلاً أن الطعام المقلى يسبب اضطرابات معوية • ولكننا نهرناه وطلبنا منه ألا يكون غيبا • وتابع جورج كلامه قائلاً بنبرة جادة ذات مغزى :

ـ لن نأخذ معنا كيروسين •

وفى الحال وافقنا أنا وهاريس على هذه الملاحظة

فكل منا له ذكريات اليمة مع الكيروسين . فقد أخذنا معنا ذات مرة - لن نكررها أبدا - لقضاء عطلة كانت من أعجب وأسوأ العطلات التي قضيناها . كنا وكاننا نحيا داخل مستودع للوقود لمدة أسبوع . فقد تخلل الكيروسين كل شيء حولنا ، وهاكم الحكاية بالتفصيل -

بدأنا رحلتنا بعد أن وضعنا أوعية الكيروسين في مقدمة القارب ، ومنها انساب الى المؤخرة ناشرا رائحته الكريهة في كل أنحاء ومحتويات القارب حتى افسد كل شيء حولنا . . . الطبيعة . . . الطقس . . . الهواء كل شيء ، كانت تهب علينا - أحيانا - رياح بترولية غربية ، وأحيانا أخرى بترولية شرقية ، ومرة بترولية شمالية وربما بترولية جنوبية . من أين أتت الرياح ، من ثلوج القطب الشمالى أم من صحراء افريقيا كانت تأتينا معبأة برائحة الكيروسين !

حاولنا التخلص من هذا العذاب فتركنا القارب عند مدينة « مارلو » وتمشيينا خلال شوارع المدينة لنفلت من هذه الرائحة ، ولكنها تبعتنا فامتلات المدينة بأكملها

برائحة البترول . . ومررنا فى سيرنا بغناء الكنيسة
حيث توجد المقابر ، فخيل لنا أن الموتى قد دفنوا فى
أبار البترول .

تمشينا فى شارع المدينة الرئيسى فوجدنا هواء
مشبعاً برائحة الكيوسين ، وأخذنا نتعجب من سكان
تلك المدينة ، كيف يطبقون العيش فى مثل هذا الجو ؟
وسرنا أميالاً فى اتجاه برمنجهام ، ولكن جهدنا ضاع
سدى ، فحتى الريف وجدناه غارقاً فى البترول !

ولكل ماتقدم كان قرارنا الحكيم هو أن يحتل الموقد
الكحولى المكانة الأولى . والا مكان معنا للموقد
الكيوسينى .

واقترح جورج - كطعام للافطار - أن نأخذ بعض
البيض ، حيث أنه سهل الاعداد ، بالإضافة للحم البارد
والشاي والخبز والزبد والمربى ولكن . . لاجين . فالجين
كالكيوسين يترك بصمته على كل شئ ، أنه يتخلل سلة
الطعام فيسبح على كل ما بها طعم الجين ونكهته حتى أنك

لاستطيع أن تعرف أى نوع من الطعام تأكل من فرط
امتزاجه بطعم الجبن .

اننى أنكر صديقا لى اشترى قطعتين من الجبن من
« ليفربول » وكانتا ناضجتين نضوجا رائعا بحيث أن
رائحة الجبن يمكن أن تصطدم بأنفك وأنت على بعد مائتى
خطوة منها .

وكنست فى ليفربول فى ذلك الحين ، فطلب منى
صديقى أن أحمل قطعتى الجبن هاتين معى عند عودتى
الى لندن ، حيث أنه مضطر للبقاء فى ليفربول ليومين
آخرين وهو يعتقد أن الجبن لا يتحمل الحفظ خارج
ثلاجة أكثر من هذا . فأجيبته لطلبه قائلا :

— اوه ، بكل سرور يا صديقى العزيز .

وأخذت الجبن معى وركبت عربة أجرة (حنطور)
يجرها حصان عجوز مريض ووضعت الجبن فوق العربة
وبدأنا السير ببطء ولكن ما أن انعطفنا عند ناصية
الشارع حتى حملت الرياح رائحة الجبن الى أنف
الحصان العجوز ، فلدغته فى أنفه ، ومع صيحة رعب

اندفع الحصان العجوز يجرى بكل قوته ، حتى ان الأمر
استدعى الاستعانة باثنين من عمال السكة الحديدية -
بالاضافة للسائق - لكبح جماح الحصان المرعوب
وايقافه عند باب المحطة !!

والحقيقة - هذا ما اعتقده - انه ماكان بإمكان أحد
أن يسيطر على جنون هذا الحصان المسكين لولا أن هدى
الله رجلا ذكيا فوضع منديلا على انف الحصان وأشعل
أمامه بعض الورق !

أخذت تذكرتى وجعلت أسير متبخترا على رصيف
المحطة حاملا الجبن الفواح . بينما يفسح لى الناس
الطريق مبتعدين عنى فى احترام شديد !

كان القطار مزدحما واضطرت للركوب فى ديوان
به سبعة ركاب آخرين . وقد اعترض على دخولى رجل
عجوز ذو مزاج حاد - يبدو أنه من علية القوم - لكنى
دخلت رغما عنه ووضعت مامعى من جبن تحت المقعد
وجلست وعلى وجهى ابتسامة رضاء بريئة وأنا أقول :

- أوه ، كم كان يوما حارا !

ومرت بضع دقائق بعدها بدأ الرجل العجوز يتعلمل
فى مقعده ويقول :

— انها قريبة جدا من هنا !

ورد عليه الجالس بجواره :

— اوه وكريهة جدا !

ثم بدأ لكل منهما يلتقط أنفاسا حذره ضيقة ، وهى
الشهيق الثالث أصابهما سهم الرائحة فى صدريهما ،
فقاما دون أن ينبسا بحرف ، ثم غادرا المكان .. وبعدهما
قامت سيدة بدينة وللمت حقيبتها مع ثمانية طرود
وغادرت الديوان .. بينما مكث بقية المسافرين فى أماكنهم
لبعض الوقت وفجأة ! .. اندفع ثلاثة منهم نحو الباب
فى وقت واحد فجرحوا بعضهم البعض فى تسابقهم فى
الخروج ..

ابتسمت للمسافر الوحيد الذى بقى فى العربة وقلت
له :

— يبدو أننا سنستمتع بالسفر وحدنا دون زحام !

فضحك وقال :

- ان بعض الناس يمكن مضايقتهم بسهولة .
ولكن مالبث رفيق سافرى - وبعد أن بدأ القطار
يتحرك - أن ظهرت على وجهه علامات الحزن والضيق
ولهذا - وكتلطف منى - دعوته لكأس فى غرفة الطعام ،
فوافق على الفور ، وعندما كنا نسير فى طريقنا لغرفة
الاستراحة توقف وطلب منى شلنين - ثمن كأس الويسكى
- وذهب وتناولها بمفرده ثم دلف لعربة أخرى بسرعة .
لدى وصولى الى لندن حملت الجبن الى منزل
صديقى . وعندما دخلت استقبلتنى زوجته وهى تشمم
الهواء حولها ثم سألتنى :

- ما هذا ؟ !

فقلت :

- انه جبن اشتراه (توم) من ليفربول وطلب منى
أن أحضره وأقدمه لك ياسيدتى !
وتأخر صديقى فى ليفربول أكثر مما كان يتوقع .

وعندما مرت ثلاثة أيام دون أن يحضر اتصلت بى زوجته
تليفونيا وقالت :

– ماذا قال توم بخصوص هذا الجبن ؟
فقلت :

– انه نصح بوضع الجبن فى مكان رطب وطلب
الا يسه أحد .

فردت فى عصبية :

– لا أحد يحب أن يقترب منه . ألم يشم رائحته ؟
فقلت بهدوء :

– أعتقد أنه فعل . وقد بدا مولعا بها تماما !

فسألتنى بصوت ودود :

– هل تعتقد أنه ربما يتضايق ان أنا أعطيت رجلا
ما جنيها أو جنيهين ليحمل هذا الجبن ويدفنه بعيدا .

فقلت محذرا :

– انه لن يعرف البسمة فى حياته بعد هذا .

وبعد لحظة صمت ، وكان فكرة رائعة ارتطمت
برأسها وصاحت زوجة صديقى فى ابتهاج :

— هل تمنع فى الاحتفاظ بهذا الجبن عندك لأجل
توم . سوف أرسله لك على الفور .

ولكنى رجوتها قائلاً :

— سيدتى العزيزة ، اننى حقا أحب الجبن ولسوف
أظل أنظر لرحلتى معه من ليفربول الى لندن على أنها
كانت نهاية سعيدة لعطلة ممتعة . ولكن فى عالمنا هذا ،
يجب على المرء أن ينظر بعين الاعتبار لأذواق الآخرين
والسيدة التى اسكن تحت سقف بيتها أرملة وهى لا تحب
أن يفرض عليها أحد شيئاً لا تريده أو كما تسميه هى
(ضد ارادتها) . ووجود الجبن الخاص بزوجك فى
بيتها سيندرج تحت هذا الاسم بالتأكيد . . . وأنا لا أحب
أن يقال عنى أنى أكرهت أرملة وأطفالاً يتامى على تحمل
أمر (ضد ارادتهم) . .

فقالت :

— حسن اذن ، ان كل مايمكننى عمله الآن هو أن

أخذ أطفالى ونذهب لنقيم فى فندق حتى يأتى توم ويأكل هذا الجبن أو يتخلص منه . فأنا لا أتحمل البقاء مع هذا الشيء تحت سقف واحد أكثر من هذا .

وجاءت فاتورة الفندق بخمسة عشر جنيها . وهكذا وبعد أن جمع صديقى كل التكاليف . اكتشف أن ثمن الجبن صار يفوق الجنيه والثمانية شلنات التى دفعها ثمنا له بكثير . مما جعله يقول أنه وإن كان يعشق أكل الجبن القديم إلا أنه أصبح مكلفا للغاية . ولهذا قرر التخلص من قطعة الجبن .

وبدا بأن ألقاه فى النهر ، ولكن عمال القوارب اشتكوا من رائحته التى تصيبهم بالاعياء ، وصار عليا أن يستخرجه ثانية . وبعد محاولات مختلفة فشلت جميعها . هداه تفكيره الى أن يدفنه فى رمال الشاطئ فى إحدى المدن الساحلية الصغيرة . .

وقد اشتهرت هذه المدينة الآن بعد أن كثر حديد الناس عن مدى قوة هوائها وأصبحت المدينة الساحلية مزارا لمرضى الصدر لسنوات عدة بعد هذا . .

وهكذا ، رغم ولعي الشديد بأكل الجبن وافقت على
رأى جورج بعدم أخذ أى جبن معنا فى رحلتنا القادمة .
وقبل أن نفترق هذا المساء ، كنا قد وضعنا قائمة بالأشياء
التي يجب أن نأخذها معنا . . وفى اليوم التالى - يوم
الجمعة - جمعنا كل شئ ووضعناه مع بعضه البعض
والتقينا فى المساء لنحزم الحقائب والأمتعة .

أحضرنا حقيبة كبيرة للملابس وسلتين كبيرتين
للطعام وأدوات الطهى . وأزحنا المنضدة من وسط
الغرفة والصقناها بالجدار بجوار النافذة . ثم وضعنا
كل الأشياء وفى كومة واحدة فى منتصف الغرفة على
الأرض وجلسنا حولها ننظر إليها .

وبعد لحظات من الصمت انبريت قائلاً :

- دعوا لى مهمة ترتيب هذه الأشياء !

الحقيقة أنى كنت فخوراً - الى حد ما - بطريقتى
فى ترتيب الحقائب وحزم الأمتعة فهذا شئ من تلك
الأشياء التى اعتقد أنى أعرفها أكثر من أى انسان آخر
وقد أوضحت هذه الحقيقة لكل من جورج وهاريس .

فوافقا على ترك المهمة بحماس بالغ . وأشعل جورج غليونيه وألقى بنفسه فوق مقعد وثير ووضع هاريس قدميه فوق المنضدة وأشعل سيجارا وجلس يدخنه فى استرخاء شديد .

أوه ! لم يكن هذا - بالتأكيد - هو ما قصدت اليه بقولى (دعوا لى مهمة ترتيب الأشياء) لكنى كنت أقصد مهمة ادارة عملية الترتيب على أن يعمل - جورج وهاريس - بناء على توجيهاتى . . . أوه ان أخذهما عبارتى هذا المأخذ أغاظنى بشدة . فلا شىء يثير غضبى قدر أن أرى الآخرين يجلسون هكذا بلا عمل بينما أقوم أنا بالعمل كله وحدى .

على أية حال لم يعد فى امكانى التراجع الآن . وبدأت العمل باجتهاد . وكم بدأ لى شاقا وطويلا أكثر مما كنت أتصور بكثير . الا انى أخيرا انتهيت من ترتيب حقيبة الملابس وجلست فوقها لأحكم اغلاقها . وفى هذه اللحظة سألتنى هاريس بهدوء وبرود :

- ألن تضع الأحذية ذات الرقبة الطويلة فى الحقيبة ؟ !

فنظرت حولى ووجدت أنى قد نسيت الأحذية بالفعل !

يا الله !! ان هاريس لم يشأ أن يكلف نفسه عناء تنبيهى ولو بكلمة واحدة قبل أن أنتهى من ترتيب كل شىء وأستعد لاغلاق الحقيبة وحزمها .

وبينما انا أفتح الحقيبة من جديد لأضع فيها الأحذية راح جورج يقهقه عاليا فى واحدة من ضحكاته الهيستيرية التافهة . أه كم يثيرنى تصرف هذين الشخصين ويغیظننى .

وما كدت أبدا فى اغلاق الحقيبة مرة أخرى حتى مر بذهنى خاطر مأساوى . . . أترانى قد وضعت فرشاة أسنانى فى الحقيبة أم نسيتها كعادتى .

مرة أخرى كان على أن أخرج كل شىء فى الحقيبة بحثا عن الفرشاة . وفى بحثى وجدت فرشاة جورج وفرشاة هاريس ، لكنى لم أجد فرشاة أسناني أنا . وأخذت أضع الأشياء فى الحقيبة قطعة قطعة علنى أجدها ، وكنت أرفع كل قطعة الى أعلى وأهزها غربما تكون فرشاة أسناني عالقة بها . ولكن ضاع كل هذا

سدى . . الى ان وجدتھا أخيرا مختبئة داخل أحد
الأحذية ذات الرقبة الطويلة فوضعتها فى مكانها وبدأت
أرتب كل شئ من أول وجديد . . !

وجلست فوق الحقيبة لأشد وثاقها وأحكم اغلاقها ،
ولكنى ما أن بدأت فى ذلك حتى تذكرت أنى قد وضعت
علبة الطبايق الخاصة بى داخل الحقيبة . وهكذا كان
على أن أفتحها لأعيد الكرة مرة أخرى !!

وبعد أن انتهيت وببرودة القاتل عاد جورج يسألنى
عما اذا كنت قد وضعت الصابون فى الحقيبة أم نسيته .
فصرخت فيه بصبر نافذ وقلت له انتى لا يعتينى ان كان
الصابون داخل الحقيبة أم خارجها .

أخيرا . وبعد أن تعدت الساعة العاشرة بخمس
دقائق أتممت تحريم الحقيبة واغلاقها . وبقي أن أرتب
الأشياء الأخرى فى السلتين . ولكن هاريس قال فى
تعال وسخرية أنه يرى من الأفضل أن يقوم هو وجورج
ببقية العمل . فوافقت فى الحال وجلست ألتقط أنفاسى
بينما بدأ صديقائى فى العمل .

شرع الصديقان فى العمل بروح مرحة وبعزيمة معقودة على أن يريانى كيف يكون العمل فى مثل هذه الأشياء . أما أنا فلم أبد أية ملاحظة ، فقط جلست أنتظر وأنظر الى أكوام الأطباق والاقداح والغلاية والموقد والفتائر والكعك والفاكهة والزبد والمربى ... الى آخره ، وملأتى شعور بأن الأمر سيكون مضحكا للغاية .

وقد كان ، فقد بدأ بكسر قدح من الزجاج ، ثم وضع هاريس علبه مربى كبيرة فوق بعض الفاكهة الناضجة وسحقها فكان عليهما أن يخرجيا الفاكهة من السلة بواسطة ملعقة صغيرة . ثم جاء دور جورج الذى دهن الزبد بقدمه . وبالطبع لم أعلق أنا على كل هذا ولكنى قمت وجلست على حافة المنضدة لأتفرج مستمتعا عليهما . وقد أعاظهما تصرفى هذا بما يفوق ماكان يمكن أن يفعله أى تعليق .

ثارت أعصابهما واشتعل غيظهما فازداد ارتباكهما وطفقا يعشيان على الأشياء ، ويضعان أشياء أخرى خلف ظهريهما ، ثم يعودان يبحثان عنها فلا يجدانها .

ووضعا القطائر فى قاع السلة والأشياء الثقيلة على
السطح وبذلك هرسا القطائر . ونثرا الملح فوق كل
شئ . بل انى لم أر رجلين فعلا برطل من الزبد أكثر
مما فعل جورج وهاريس .

فبعد أن انتزعه جورج من نعل حذائه حاول أن
يضعاه فى علبة فلم يستطيعا أن يضعاه كله بداخلها ،
وما أدخلاه لم يستطيعا اخراجه . وأخيرا كحتاه
ووضعه فوق أحد المقاعد . وفى غفلة منه جلس هاريس
على هذا المقعد فالتصق الزبد بمقعده وبعد برهة كان
هو وجورج يقلبان الغرفة بحثا عن الزبد .

وقال جورج وهو يحملق فى المقعد الخالى :

— أقسم أنى وضعته فوق هذا المقعد .

ورد عليه هاريس :

— انى رأيته بعينى رأسى منذ أقل من دقيقة !

ثم أخذا يدوران فى الغرفة بحثا عن رطل الزبد .

ثم تقابلا مرة أخرى في منتصف الغرفة وحملق كل منهما في الآخر .

وقال جورج :

— ان هذا أعجب شيء سمعت به في حياتي !

وايده هاريس بقوله :

— انه لشيء غامض جدا !

واستدار جورج مصادفة خلف هاريس فوجد الزيد ملتصقا بمقعده فصاح مندهشا في غضب :

— ياربى .. هاهو الزيد موجود هنا طول الوقت !

وصاح هاريس وهو يستدير للخلف بسرعة :

— أين ؟

وأمسك به جورج ونهره بقوله :

— قف حيث أنت .. الا يمكنك ان تقف ساكنا ابدا ؟!

ثم انتزع قطعة الزيد من مقعده ووضعها في عليه الشاي .

وغنى عن الذكر أن مونتمورينسى كان مشاركا فى تلك الفوضى منذ البداية . فان أقصى ما يطمح اليه مونتمورينسى هو أن يكون دائما حيث لا يجب أن يكون وأن يعترض طريقك حيثما توجهت ، وتبلغ سعادته قممتها حينما يثير أعصاب الناس فيقذفونه فى وجهه بكل ما تناله أيديهم . انه هكذا يشعر بالرضا عن يومه .

فهو قد جلس ممعدا فوق الأشياء التى أردنا جمعها معا . وقد بدا عليه أنه يعتقد أنه حيثما مد جورج أو هاريس يدا لتناول أى شىء فانما هما يقصدان أنفسه الرطب . ثم وضع قدمه فى المربى ولوث بها كل الملاعق وأصر على اعتبار التفاحات فئرانا ومن ثم قفز داخل السلة ثلاث مرات قبل أن يطرده هاريس بواسطة المقللة .

وتم حزم الأمتعة كلها فى الثانية عشرة وخمسين دقيقة . وجلس هاريس فوق أكبر السلتين وقال وهو يلهث أنه يأمل ألا يكون شىء قد تكسر ، فرد عليه جورج بأن قال أنه اذا كان ثمة شىء قد انكسر فقد انكسر ،

وقد بدا كأنما أراحته هذه الفكرة . . ثم قال أنه أصبح الآن جاهزا للنوم . . وفى الحقيقة كنا جميعا فى أمس الحاجة للنوم وقد قرر هاريس أن يبيت معنا الليلة فصعدنا الى حجرات النوم . .

وسألنا جورج :

— فى أى وقت تحبون أن أوقظكم يارفاق ؟

قال هاريس :

— فى السابعة .

ولكنى قلت بسرعة :

— لا . . بل السادسة .

لأنى كنت أريد أن أكتب بعض الرسائل . وأخيرا اتفقنا على أن نجعلها السادسة والنصف

وقلنا أنا وهاريس فى صوت واحد :

– أيقظنا في السادسة والنصف يا جورج

ولكن جورج لم يحر جوابا والفيناء قد سافر في
نوم عميق فوضعنا اثناء الحمام مملوءا بالماء تحت
سريره وحيث يستطيع أن يسقط فيه عند استيقاظه ..
ثم ذهبنا لننام ١٠٠

:: سحر الليل :: ليلاس ::
www.liilas.com/vb3

الفصل الخامس

وبدأنا الاجازة

كانت السيدة بوبيت هي التي أيقظتني في الصباح
وهي تقول :

— هل تعلم أن الساعة قد قاربت التاسعة ياسيدي ؟

فانتفضت مفزوعا وأنا أصرخ :

— ماذا ؟ التاسعة !

فأعادت مسرّ بوبيت على سمعي قولها وهي لاتزال
خلف الباب :

— التاسعة تماما ياسيدي ، أعتقد أنك نمت كثيرا .

أيقظت هاريس وأخبرته أن الساعة قد صارت
التاسعة صباحا فقال وهو يغالير المنعاس .

— التاسعة ؟ .. اعتقد أنك كنت تريد الاستيقاظ في
السادسة ..

— نعم كنت أود هذا . لم لم توقظني حتى الآن ؟

— كيف أوقظك بينما أنت تركتني نائما ؟ !

واستطرد هاريس قائلا بغضب :

— الآن لن نستطيع أن نكون في الماء قبل الثانية
عشرة .. !

ثم قال بسخرية غاضبة :

— اننى أعجب كيف حملت نفسك كل هذه المشقة
ونهضت من فراشك !

فأجبت في حدة قائلا :

— من حسن حظك أنى فعلت ذلك .. فلو أنى لم

أستيقظ وأوقظك لظلمت راقدا هناك تغط في نومك طوال
الأسبوعين القادمين !!

وبينما نحن في جدلنا هذا ، لاحظنا فجأة - وفي
وقت واحد - أن جورج لا يزال راقدا .. هذا الرجل
الذي كان منوطا به مهمة ايقاظنا ، والذي أظهر حرصا
مبالغا فيه لمعرفة الموعد الذي تود أن تصحو فيه .
ها هو ذا لا يزال راقدا على ظهره وقمه مفتوح على
مصراعيه وركبتاه ملتصقتان . وما أن رأيناه حتى
نسبنا جدالنا واندفعنا اليه في وقت واحد وجذبنا كل
الأغطية والملابس من فوقه .. وأعطاء هاريس صفعه
قوية (بالشيشب) بينما اخذت أنا اصيح في أذنه حتى
يقظنا بطريقة يستحقها .

قال جورج ساخطا وهو يستوى قاعدا :

- ماذا حدث !!

فصرخنا فيه :

- قم أيها الغبي ذو الراس الثقيلة .. ان الساعة

قد جاوزت العاشرة !

فصعق وقفز واقفا وهو يصيح :

— ماذا ؟ !

فوقع فى اناء الحمام المملوء بالماء والذي كنا قد
وضعناه أمام سريره بالأمس ، فصرخ وقد مزقه الغيظ :

— أى انسان على وجه هذه الأرض وضع هذا الشيء

هنا ؟

فقلنا له سادخين ، أنه لابد أن يكون أحق لأنه
لم ير الحوض الموضوع أمام سريره وارتدنا ملبسينا ،
ولكن عندما أردنا تصفيف شعرنا ، تذكرنا أننا قد وضعنا
فرشاة الشعر مع فرش الأسنان بالحقيبة وبالتالي كان
علينا أن ننزل ونفتح الحقيبة ونخرجها .. وبعد أن
فعلنا هذا وأغلقنا الحقيبة .. قال جورج أنه يريد أدوات
الحلاقة من داخل الحقيبة ولكننا أجبناه أن عليه أن
يخرج اليوم بدون حلاقة لأننا لن نهدم كل مارتبناه لأجل
خاطر نقتنه !

توجهنا لتناول طعام الاقطار ، وبدأ أن

مونتمورينسى قد دعا اثنين من كلاب الحى على طعام
الافطار لكى يودعا ، وقد قضيا وقتها فى العراك عند
درجات سلم الباب فأسكتناهما بمظلة المطر وجلسنا
نتناول الافطار .

أمسك جورج الجريدة وأخذ يقرأ بصوت عال
- متعمدا - أخبار حوادث السفن وأنباء النشرة الجوية
التي كانت تتنبأ بطقس بارد وأمطار غزيرة مصحوبة
بعواصف رعدية ورياح شرقية شديدة !

أوه . . اننى أعتقد انه من بين كل الأشياء الحمقاء
التي تملأ الدنيا وتنغص علينا حياتنا فان نشرة التنبؤات
الجوية أسوأها وأكثرها حمقا . . انها قد تنبئك بدقة
عن طقس أمس أو أمس الأول بينما تنبئك - وبدقة - عن
عكس ما سوف يحدث اليوم .

اننى أذكر عطلة لى مع أصدقائى أفسدناها تماما
بتصديقنا لتنبؤات الأرصاد المنشورة فى الصحف . كنا
فى أواخر الخريف وبدايات الشتاء وقد قررنا قضاء
يوم فى الريف . وبعد أن وصلنا الفندق الذى سننزل

فيه في العطلة قرأنا تنبؤات الأرصاد . وكانت تتنبأ
بأمطار غزيرة مصحوبة بعواصف رعدية تحدث في نفس
اليوم .

وعلى هذا تخيلنا مشروعاتنا في قضاء اليوم في
الخلاء ومكثنا بالداخل ننتظر هطول الأمطار ونتطلع من
النافذة . كان الناس يمرون أمامنا في عربات مكشوفة
وكانوا في منتهى المرح والسعادة ، والشمس فوقهم في
غاية الاشرار والسماء صافية لا يعكر صفوها مرور
سحابة واحدة .

أخذنا نقدر على هؤلاء الناس ونقول :

— آه . . لا بد أنهم سيعودون لبيوتهم غارقين
في الماء !

وابتسمنا لهذه الفكرة . . فكرة أن هؤلاء الناس
السعداء بالشمس المشرقة ، سيعودون لبيوتهم وملابسهم
تقطر ماء بعد أن يفاجئهم المطر والرياح ، وتركنا النافذة
وعدنا للداخل فأججنا لهيب نار المدفأة وتحلقنا حولها
وقد أمسك كل منا بكتاب يقرأه .

وعند منتصف النهار ، ومع انسكاب أشعة الشمس داخل الحجرة أصبحت الحرارة لا تطاق .. وأخذ سؤال حائر يتردد بيننا .. متى ستبدأ تلك الأمطار الغزيرة والعواصف الرعدية التي نبأتنا عنها الأرصاد وأخذنا نقول لبعضنا البعض :

— يبدو أنها ستبدأ بعد الظهر .. أوه .. لأبد أن هؤلاء الناس سيفرقون في ملابسهم المبتلة . يالها من نكتة !

وفي الساعة الواحدة دخلت صاحبة المنزل وسألتنا عما إذا كنا لن نخرج للفرصة في هذا الطقس الجميل ؟ ! فأجبناها ونحن نضحك ضحكة الخبير العالم بيوطن الأمور :

— لا .. لا .. لا .. اننا لانهب أن نبتل . لا .. لا ..

وعندما صار عصر اليوم على وشك الانتهاء دون أن تسقط قطرة واحدة من السماء ، أخذنا نواسي أنفسنا بقولنا .. ان المطر سيبدأ فجأة ، بينما يكون هؤلاء الناس في رحلة عودتهم لبيوتهم ووقتها لن يجدوا

ما يحتمون تحته من المطر وسيبتلون بشـكل غير
متوقع .

ولكن السماء لم ترسل قطرة واحدة وتمر اليوم كأجمل
ما يكون بل وتلقته ليلة دافئة رائعة .

وفي الصباح التالي قرأنا في الجريدة أن الطقس
سيكون اليوم دافئاً مستقراً ، وقد ترتفع درجة الحرارة
ارتفاعاً طفيفاً . فارتدينا ثياباً خفيفة وخرجنا .

ولم يمض أكثر من نصف ساعة حتى بدأ المطر
ينهمر وهبت علينا الرياح قارصة البرودة واستمر
الطقس على هذه الحال طول اليوم . وعدنا للبيت
مصابين بالصداع وآلام المفاصل فالقى كل منا بنفسه
فوق فراشه وراح في النوم .

أوه ، سيظل الطقس بالنسبة لى شيئاً يستعصى
على الفهم أبداً .

ونعود الى صباحنا هذا ، فقد كان الطقس يبدو
جميلاً دافئاً والشمس ساطعة الا ان جورج قد قرأ هذه
التنبؤات ليثير قلقنا انتقاماً لما فعلناه به عندما

أيقظناه ، وعندما وجد أننا لم نتأثر بكلامه وأنه أضاع وقته سدى ، قام بعد أن أخذ سيجارتي التي لففتها لنفسي بعناية وخرج قاصدا الذهاب الى البنك .

بعد الافطار ، حملنا أنا وهاريس الأمتعة ووضعناها أمام الباب في الخارج ووقفنا ننتظر عربة أجرة .. ويبدو أننا أحسنا صنعا بوضع الأمتعة كلها معا . كانت هناك الحقيبة الجلدية الكبيرة وأخرى صغيرة بالإضافة لسلتى الطعام الكبيرتين وكومة كبيرة من الأغذية وأربعة أو خمسة معاطف ضد المطر عدا بعض المظلات ورغيفا كبيرا من الخبز وضع وحده في حقيبة خاصة لأنه كان كبيرا جدا بحيث لايمكن وضعه في حقيبة واحدة مع أى شئ آخر وأيضا رطلين من التفاح وضعناها في سلة وحدهما . والمقلاة التي كانت طويلة بحيث كان من المتعذر حزمها مع بقية الأشياء فلفناها بالورق وحملناها وحدها .

كان هذا كثيرا بالتأكيد ، وقد بدأنا نشعر بشيء من الخجل لحملنا كل هذه الأشياء ، وإن كنت في الحقيقة لا أجد مبررا لهذا الخجل .

ومر وقت طويل ونحن واقفان ولم تمر أية عربة
أجرة ، وبدلاً من هذا مر بعض الصبية الذين بدا عليهم
الاهتمام بالعرض الذي كنا نقدمه فوقفوا ليتفرجوا
علينا .

وكان أول القادمين صبي « بيجز » ، وبيجز هذا هو
متعهد توريد الفاكهة والخضراوات لنا ، وكان كأنما يستخدم
أحط الفتیان وأكثرهم شراً في هذا العالم ليعملوا عنده
كصبية له (يحملون الفاكهة والخضراوات لتوصيلها للمنازل)
عندما ظهر هذا الصبي عند ناصية الشارع كان يسير
مهرولاً ولكنه ما أن وقعت عيناه على منظرنا أنا وهاريس
ومونت مورينسي وكومة الأشياء حتى أبطأ في سيره وأخذ
يخلق فينا .

وجهت إليه أنا وهاريس نظرات متنةمة محذرة ،
ولكن .. ضاعت نظراتنا سدى ، فقد استمر الصبي
في سيره نحونا حثيثاً الى أن أصبح بينه وبيننا خطوة
واحدة وانحنى مستنداً على درابزين السلم ، وجعلنا
نتسمر في أماكننا بنظراته النافذة .

وفي اللحظة التالية مر صبي البقال من الجهة
الأخرى للشارع فناداه صبي « بيجز » قائلاً :

— هاي .. ان الدور الأرضي للمنزل رقم ٤٢ قد
بدأ يتحرك !

وبسرعة جاء صبي البقال واتخذ مكانه على الجانب
الأخر من السلم وتلاه شاب يعمل في دكان الأحذية
ووقف بجوار صبي « بيجز » ثم توافد آخرون وآخرون
واحدا تلو الآخر . وجاءت عبارات التهكم من الشاب
اللطيف الذي يعمل في دكان الأحذية فقد قال :

— انهم لن يموتوا جوعا على ما يبدو اليس كذلك ؟

ورد عليه آخر :

— أه ، أكنت ستحمل معك شيئا أو شيئين فقط
لو أنك كنت ستعبر الأطلنطي في قارب .

وبمرور الوقت تجمع حولنا مجموعات من المارة ،
وبدأ الناس يتساءلون عن سبب هذه (الزحمة) ومالت
مجموعة الشباب لرأي القائل أن أحدا على وشك

الزواج وقد أشاروا لهاريش باعتباره سعيد الحظ .
أما مجموعة كبار السن الأكثر رزانة فقد ارتاحوا أكثر
لفكرة أن هناك جنازة وأننى ربما أكون أخا للفقيد . . !

أخيرا وصلت عربة أجرة فارغة حملتنا وأشياءنا
بينما تخلصنا من صديقى مونتيمورينسى اللذين كانا
قد أقسمنا ألا يفارقاه أبدا . وشققنا طريقنا وسط الزحام
والقى صبى بيجز ببصلة خلفنا جلبا للحظ .

وصلنا محطة ووترلو فى الحادية عشرة ، وسألنا
عن مكان القطار الذى يتحرك فى الحادية عشرة وخمس
دقائق . وبالطبع لم يكن هناك من يعرف ! فلا أحد فى
وترلو يعرف من أين أو الى أين يتحرك أى قطار فى
هذه المحطة . أو قل أنه لا يوجد من يعرف أى شيء عن
أى شيء فى تلك المحطة .

كان العمال الذى حمل أمتعتنا يعتقد أن قطارنا
سيتحرك من الرصيف رقم (٢) . ولكن أحد موظفى
المحطة سمع شخصا يقول أن هذا القطار سيخرج من
رصيف رقم (١) وعلى أية حال كان ناظر المحطة متأكدا
من أنه سيتحرك من رصيف (٤) .

ولكى نضع نهاية لهذا الارتباك قررنا الصعود
للسيد رئيس الحركة لسؤاله . وبالفعل أجابنا سيادته
بأنه قد قابل للتو رجلاً أخبره أن قطار الساعة ١١ر٥٠ يقف
على رصيف رقم (٣) فأسرعنا الى هناك ولكننا عرفنا
عند وصولنا أن القطار المنتظر هناك هو القطار السريع
المتجه الى ساوث هامبتون .

بعد هذا ، قال الحمال أنه يعتقد أنه رأى قطارنا
يقف على رصيف آخر فعاودنا الكرة وعدنا ندور
متجهين الى رصيف آخر ووجدنا سائق الجرار فسألناه
إذا كان متجها الى كنجستون ، فقال أنه ليس متأكدا
على وجه الدقة ولكنه يظهر ذلك . فدسنا ثلاثة شلنات
في يده ورجونا أن يكون هو القطار المتجه الى كنجستون
والذي يتحرك الساعة ١١ر٥٠ وقلنا له :

— ولن يعرف أحد أبدا أى قطار أنت ولا الى أين
ستجّه . انك تعرف الطريق فتسلل ببطء واذهب الى
كنجستون !!

فاجابنا الرجل النبيل بقوله :

- حسن ، حقا أنا لا أعلم ، ولكنى متأكد من أنه لا بد أن يتجه قطار الى كنجستون . وأنا سافعل وهكذا وصلنا كنجستون عن طريق سكك حديد لندن والشمال الغربى . وعرفنا بعد ذلك أن القطار الذى حملنا كان قطار البريد وأنهم قضوا عدة ساعات فى محطة ووترلو يبحثون عنه ولم يعرف أحد ما مصيره .

ووجدنا القارب يقبع فى انتظارنا تحت القنطرة فى كنجستون فشققنا اليه طريقنا ورتبنا فيه الأمتعة ثم خطونا داخله . وسألنا (المراكبى) قائلاً :

- هل كل شىء على مايرام ياسادة ؟ !

فأجبناه معا :

- على مايرام تماما .

واندفعنا فوق صَفْحَةِ النهر الذى سيكون
ولأسبوعين قادمين وطننا الذى نعيش فيه . .

الفصل السادس

التيه في قصر هامبتون

كان يوما رائعا من أيام الربيع الأخيرة ، وكان كل ما حولنا يصنع صورة للربيع مشرقة وهادئة • مملوءة بالحيوية ومملوءة بالسلام • وبينما كان هاريس يجدف بنشاط رقدت أنا على ظهري وأخذت أحلم بأيام كنتجستون الخوالي •

لكن ، على أية حال سرعان ما قال هاريس أنه عمل بما فيه الكفاية وأن دوري قد جاء لأقوم بالتجديف • ومررنا في سيرنا بقصر هامبتون المشهور بمقاوته ، وكان يبدو هادئا ينعم بسلام جميل • • وبينما أنا

استرسل في افكارى الحالة ان بهاريس يقطعها على
ليسألني ان كنت دخلت لمقاهة قصر هامبتون قبل هذا ام
لا ؟

ثم استطرد في حكايته قائلا ، انه دخلها ذات مرة
ليدل شخصا آخر على الطريق . وقد درسها بواسطة
خريطة . ولكم كانت الخريطة بسيطة لدرجة (العبط)
لدرجة انه تصور ان الخريطة قد رسمت كدعابة ، حيث
انها لم تكن تبدو كخريطة حقيقية بل مجموعة من
الخطوط المتداخلة وكان الرفيق الذي اخذه هاريس ليريه
تلك المقاهة هو ابن عم له من الريف . وقد قال له
هاريس :

- سوف تدخل هناك في الحال ، حتى تستطيع ان
تحكى وتقول انك دخلت هذا المكان . ولكنى احب ان
اقول لك انه من التغليف ان نسمى هذا المكان تيهيا او
مقاهة ان انه غاية في البساطة والوضوح كل ما عليك
هو ان تحتفظ دائما باتجاهك الى اليمين من لحظة دخولك
الى ان تخرج - على أية حال سوف نتجول سويا في
الداخل مدة عشر دقائق ثم نخرج لنتناول غداء خفيفا .

وفور دخولهما قابلا بعض الزائرين الذين اشتكوا
لهاريس قائلين أن لهم أكثر من ثلاثة أرباع الساعة في
هذه المتاهة وقد نالهم منها مايكفى . فقال لهم هاريس
أنهم يمكنهم اتباعه ان أرادوا ان أنه دخل لقوه ولسوف
يأخذ جولة صغيرة في القصر ثم مايلبث أن يعود
ويخرج ثانية . فشكروه وقالوا ان هذا عطف كبير منه
ومن ثم تبعوه .

واثناء سيرهم تجمع خلفهم التائهون الذين يرغبون
في الخروج حتى صار كل من في المتاهة يسير خلف
هاريس . حتى أولئك الذين استسلموا وفقدوا كل أمل
في الخروج من هذا المكان ورؤية عائلاتهم وأصدقائهم
مرة ثانية . حتى هؤلاء تشجعوا وانتعش الأمل في
نفوسهم عند رؤية هاريس وجماعته قانضموا الى تلك
المظاهرة سائلين الله ان يباركه !

وقد قدر هاريس عدد من تبعوه بحوالى عشرين
شخصا . . . بالإضافة لسيدة تحمل طفلها على كتفها
وتعلقت بذراع هاريس خشية أن تفقده أو يتود عنها .

وظل هاريس - حسب فكرته - محتفظا بالاتجاه
لليمين باستمرار . ولكن الطريق بدا طويلا حتى قال
ابن عمه انه يعتقد ان هذا الفصر كبير جدا فرد عليه
هاريس بقوله :

- اوه ! بل هو واحد من اكبر القصور في أوروبا
كلها .

ورد ابن عمه :

- لابد ان يكون كذلك ، فقد سرنا داخله اكثر من
ميلين حتى الآن .

حتى هاريس غزا قلبه الشك وبدأ يحس ان الامر
صار غريبا ، ولكنه استمر في السير بنفس طريقته حتى
مروا في سيرهم بقطعة من الكعك ملقاة على الأرض في
أحد الممرات والتي أقسم ابن عمه انه رآها هي بعينها
منذ سبع دقائق فقط ولكن هاريس قال :

- لا مستحيل !

فصاحت فيه المرأة التي تحمل طفلها على كتفها

– لا ليس مستحيلا البتة .

قالت السيدة هذا بلهجة الواثق لأنها هي بنفسها

كانت قد أخذتها من يد ابنها وألقته على الأرض قبيل
أن ترى هاريس مباشرة . ثم أضافت السيدة انها تتمنى
لو أنها لم تر هاريس قط . وعبرت عن رأيها فيه بصراحة
بقولها أنه مخادع وأنه قد ضللهم جميعا فاغتاظ هاريس
وأخرج الخريطة وجعل يشرح فكرته للجميع . فقال أحد
الموجودين :

– لا بأس باتباع الخريطة ان استطعنا ان نعرف

أين نقف الآن .

لكن أحدا لم يكن يعرف . . وهاريس لم يكن يعرف .

لهذا فقد اقترح أن يعودوا ثانية للمدخل ويبدأوا من
جديد . ولكن أحدا لم يبد حماسا لفكرة أن « يبدأوا من
جديد » وأن الكل قد وافقوا على العودة الى المدخل ومن
ثم استداروا وساروا خلف هاريس ثانية في عكس
الاتجاه . ومضت عشر دقائق أخرى ثم وجدوا أنفسهم
مرة أخرى في المركز .

وفكر هاريس في أن يتظاهر بأنه قد وصل إلى ما كان يهدف إليه ولكن الجماعة بدت خطيرة ومتحفزة مما حدا به إلى أن يقرر التعامل مع الموقف على أنه مصادفة .

على الأقل صار لديهم الآن شيئاً يهدأون منه . انهم على الأقل يعرفون أين هم الآن . وبالتالي فتحوا الخريطة وبحثوها ثانية وبدأ الأمر أبسط من أى وقت مضى وأعادوا الكرة للمرة الثالثة . ولكن وبعد مرور ثلاث دقائق أخرى وجدوا أنفسهم في المركز حيث كانوا .

بعد هذا لم يستطيعوا الوصول لشئ ، فحيثما ساروا أو اتجهوا ينتهى بهم المطاف إلى نقطة البداية . . المركز . لدرجة أنه صار من المألوف أن يتوقف البعض في المنتصف بينما يدور الآخرون دورة ويعودون لنفس المكان ثم يتبادلون الموقف فيستريح من كان يمشى ويمشى من استراحوا وأخرج هاريس خريطة ثانية ولكن مجرد ظهورها أثار غضب الجميع وقال هاريس انه قد بدأ ينمو داخله شعور بأنه شخص غير مرغوب في وجوده .

أخيرا صرخوا جميعا بكل قوتهم ونادوا على الحارس . وسرعان ما تسلق رجل السلم الخارجى وصاح يناديهم ويشير الى الاتجاه الذى يجب أن يسيروا فيه ولكنهم لم يفهموا فأشار لهم بما يعنى أن يمكنوا حيث هم حتى يأتى هو لهم .

كان حارسا شابا ، عين حديثا فى القصر . وعندما دخل القصر لم يصل الى مكانهم بل تاه هو الآخر . كانوا يرونه من وقت لآخر يجرى على الجانب الآخر من السياج . وكان يراهم فيسرع بالدوران ليصل اليهم . وكانوا ينتظرون . وبعد دقائق يعود فيظهر ثانية فى نفس البقعة التى ظهر فيها من قبل ويسألهم أين ذهبوا !

واضطر الجميع للانتظار حتى عاد أحد الحراس القدامى من غدائه . حتى يخرجهم من قصر التيه هذا .

وعلق هاريس على هذه القصة بأنها كانت متاهة ممتعة . وقد قررنا كلانا أن نجعل هاريس يدخلها ونحن فى طريق عودتنا .

كان من المفروض أن نقابل جورج فى « شيبرتون »

فى تمام الخامسة • وعندما ذكرت هاريس بهذا وجدته
قد غضب فجأة وأخذ يسب جورج ويتساءل فى غضب
عنيف • لماذا كان جورج أحمق هكذا طول اليوم -
فتركنا نجذف وحدنا بهذا القارب القديم حتى نقابله ؟
ولماذا لم يأت جورج ويفعل شيئاً معنا ؟ لماذا لم يأخذ
هذا اليوم إجازة من العمل ويأتى معنا؟ أية فائدة يجنيها
البنك من عمله به ؟ • واستمر هاريس فى سيل سباب
واستلته قائلاً :

- اننى لم أرد أبداً • فعل شيئاً أقيمه فى أية مرة زرته
فيها هناك • كل ما يفعله هو أنه يجلس خلف حاجز من
الزجاج محاولاً المتظاهر بأنه يفعل شيئاً • • أى نفع
يرجى من رجل يجلس خلف قطعة من الزجاج • • اننى
أعمل لأعيش فلماذا لا يستطيع أن يعمل هو ؟ اننى
لا أصدق أن جورج يعمل فى هذا البنك أصلاً • • بل
لابد أنه يلعب ويلهو فى مكان ما • أن هذا هو ما يفعله
الآن بالتأكيد تاركاً أيانا نقوم بكل العمل وحدنا !
من الحكمة دائماً أن يترك هاريس ليفرغ ما عنده
فى مثل تلك الحالات • • فسرعان ما انتهت شحنة غضبه
ويعود هادئاً وديعاً كعادته • •

الفصل السابع

عن الأغنيات الهزلية

توقفنا في طريقنا وجلسنا تحت ظلال أشجار
كيعبتون وبدأنا نتناول غداءنا . كنا نجلس في بقعة
بديعة ساحرة حيث تنبسط الحشائش الخضراء على
امتداد ضفة النهر بينما تحوطنا الأشجار الجميلة
الباسقة .

كنا قد وصلنا للمرحلة الثالثة من الغداء - الخبز
والمربي - عندما هل علينا رجل لطيف لا يرتدى سقرة
فوق قميصه ويدخن غليوننا قصيرا وسألنا اذا كنا نعلم
أننا نجلس في بقعة خاصة . فكان ردنا أننا لم نفكر في
هذا الأمر كثيرا حتى الآن ، ولكن ان هو أعلن لنا هذا

بلسانه شخصيا فانتا ان نتاخر لحظة عن تصديقه وبدون
تردد .

وبالفعل ألقى السيد المهذب علينا اعلاته ويدورنا
صدقناه فى الحال . ولكنه ظل واقفا لم يتحرك وبدا
عليه أنه غير راض بهذا التصديق ، لهذا سألناه ان كان
هناك شىء آخر نستطيع ان نفعله من أجله حتى ان
هاريس - الذى يتميز بالوداعة - قدم اليه قطعة من
الخبز بالمربى ولكنه رفض ذلك بغضب شديد بل وأضاف
بحدة وتحد أن واجبه يحتم عليه اللقاءنا خارج هذا
المكان .

فقال له هاريس بهدوء ووداعة أنه اذا كان هذا هو
واجبه فان عليه أن يقوم به ، ثم سأل الرجل عن أحسن
وسيلة يمكن بها تحقيق هذا الواجب . كان هاريس
ضخم الجثة قوى البنيان ، فنظر اليه الرجل وحملق
فيه من أعلى الى أسفل ومن اليمين الى اليسار ثم قال
بنبرة فيها من التردد أكثر مما فيها من الحدة - أن عيله
ان يذهب أولا ويسأل سيده النصيحة ثم يعود ليلقى
بنا فى النهر .

وبالطبع لم يعد أبدا وبالتأكيد كان كل مايريده من رهابنا هو أن تعطيه شلنا . فهناك الكثيرون من أمثال هذا الرجل اللفظ الذين يكسبون عيشهم خلال الصيف بالحصول على الاتاوات من نوى العقول الضعيفة بمثل هذه الطريقة .

وخير وسيلة لمواجهة مثل هذه المواقف ، هو أن تترك اسمك وعنوانك لهذا الدعي ليعرفهما لصاحب الأرض ان كان لها صاحب ، ليستدعيك للمحكمة ويحاسبك عما أحدثت من أضرار بجلوسك على هذه البقعة الصغيرة من الأرض في حديقته . غير أن ما يحدث في الواقع هو أن معظم الناس يكونون من الضعف والخوف بحيث أنهم يفضلون أن يدفعوا لمثل هذا الدعي ما يطلب منهم ، بدلا من أن يضعوا نهاية لكل هذا العبث بمجرد اظهارهم لشيء من الحزم .

وأحيانا كثيرة - أيضا - يقع اللوم على ملاك الأرض أنفسهم . فبعض هؤلاء الناس يريدون وقف نهر التيمس عليهم وانهم ليفعلون هذا حقيقة على راغد النهر وقروعه الصغيرة . فهم يغرسون الأعمدة في قاع

النهر ثم يشدون السلاسل الحديدية من الضفة للضفة
المقابلة بطول عرض الراقد ويضعون لافتة خشبية كبيرة
على كل شجرة . ولكم يثير غضبي مرأى هذه اللافتات
حتى أحس اننى لو رأيت صاحبها أو من وضعها
لقتلته ودفنته ووضعت هذه اللافتة البغيضة فوق
قبره بدلا من شاهد القبر الرخام !

وقد وصفت مشاعرى هذه لهاريس الذى عقب
بقوله أنه يود لو يفعل أكثر من هذا . . فقد قال انه لن
يقتل واضع هذه اللافتة وحسب ، ولكنه يود لو يقتل
عائلته كلها أيضا ثم يحرق بيته ويقف على أطلاله ويغنى
أغنيات هزلية .

أود ، أغنيات هزلية ! انكم لم تسمعوا - أبدا -
هاريس وهو يغنى أغنياته الهزلية والا لعلمتم أى تهديد
مروع هذا الذى توعد به واضع اللافتة . ان من أفكار
هاريس الثابتة - ياسادة - هى أنه يعتقد أنه يحسن غناء
الأغنيات الهزلية . ولكن - ومن بين الأفكار الثابتة
أيضا - لدى أصدقائه الذى سمعوا احدى محاولاته

فى الغناء هى أنه لا يستطيع ولن يستطيع الغناء ولهذا،
يجب ألا يسمح له حتى بمجرد المحاولة .

فعندما يكون هاريس مدعوا - مثلاً - فى حفل
ويطلب اليه الغناء فانه يرد بثقة فائقة قائلاً :

- ولكنى أغنى الأغانى الهزلية فقط كما تعلمون .
وهو يقول هذه العبارة - طبعاً - بطريقة توحى
بانه لايجب أن تفوتك فرصة سماعه فى احدى أغنياته
الهزلية ولو مرة واحدة فى حياتك .

ولهذا يقول المضيف بكل عرفان :

- أوه ، ان هذا سيكون شيئاً لطيفاً جداً ، أسمعنا
أغنية ياسيد هاريس !

فيقوم هاريس ويتوجه الى البيانو فى سعادة الرجل
الكريم عندما يمنح الآخرين شيئاً ذا قيمة ثم يقول
المضيف :

- من فضلكم السكوت . فالسيد هاريس سيغنىنا
أغنية هزلية !

وتسمع همهمة تسرى بين الضيوف « أوه .. يالها
من متعة » . ثم يتوافدون من كل مكان في البيت
ويتزاحمون داخل غرفة البيانو ويتحلقون حول هاريس
في صمت مبتهجين ، ثم .. يبدأ هاريس الغناء .

حسن ، انكم على أية حال لن تتوقعوا صوتا جميلا
أو حسا موسيقيا عاليا ، فالأغاني الهزلية لا تحتاج
لمثل هذا عادة . ولن تبالوا اذا وجد المغنى - وهو فى
وسط غنائه - أنه يغنى من طبقة عالية جدا فيسارع
بالهبوط فجأة . وقد لا تبالون كذلك ان هو وقف امام
البيانو وتوقف عن الغناء وأخذ يجادل عازف البيانو ثم
يعاود الغناء فجأة .. ولكنكم على الأقل تحبون أن
تسمعوا الكلمات الظريفة التى يغنيها فمن غير المستحب
أن نستمع الى مغن لا يحفظ من اغنيته أكثر من السطور
الثلاثة الأولى من المقطع الأول ، ويأخذ فى ترديدها
واعادتها كلما انتهت .. كما أنكم لا تتوقعون أن تسمعوا
المغنى وهو يتوقف فجأة عن الغناء ليضحك ببلاهة
ثم يقول :

– أوه ، انها فى غاية الظرف ولكن لا أستطيع أن
أتذكر بقيتها !

ثم يحاول أن يتذكر فيخفق . حتى يتذكرها فجأة
بعد أن شرع فى أغنية أخرى مختلفة تماما فيقطع غناءه
ويعود للأغنية الأولى دون كلمة انذار أو تنبيه .

هكذا كان يسير غناء هاريس وهو لا يدري أى أحق
يصنع من نفسه ، كما لا يدري مبلغ الضيق والألم
الذى يسببه لأناس لم يؤذوه أبدا من قبل . . انه يتصور
– بأمانة – أنه يقدم لهم شيئا مبهجا . . وعلى هذا ،
يعلن بكل فخر أنه سيقدم لهم أغنية أخرى !

ان الحديث عن الاغنيات الهزلية والحفلات ذكرنى
بتجربة طريفة تعرضت لها أنا شخصا ذات مرة . .

كنا – فى احدى الحفلات – نمثل مجموعة من
الرجال فى غاية الأناقة والذكاء . . وكنا نرتدى أفخر
الثياب ونتحدث بحيوية ومرح . . هكذا كنا جميعا عدا
شابين بدا عليهما القلق والضيق . الحقيقة أننا – وهذا
ما كنت أتصوره – كنا أكثر منهما ذكاء وثقافة ، فلم

يستطيعا مجازاة أحاديثنا الذكية الرفيعة المستوى ،
فأصبحا بذلك خارج الصحبة تماما . كانا معنا وكانهما
ليسا معنا . . . وقد وافقنسى على هذا الرأى كل
الحاضرين .

استمعنا لموسيقى من تأليف عباقره الموسيقى الألمان
وتناقشنا فى الحياة وعن المثل العليا والأخلاق ، وقرا
لنا أحد الحضور قصيدة فرنسية رائعة ، وبعدها غنت
لنا سيدة جميلة أغنية حب اسبانية رقيقة ، وكم كانت
جميلة وحزينة حتى أن الدموع قد انهمرت من عينى
واحد أو اثنين منا . . !

بعد هذا سألنا الشابان ان كنا قد سبق لنا الاستماع
« للمهر » سلوسن بوشين ، الذى كان قد وصل لتوه ونزل
مباشرة الى غرفة الطعام . . . وهو يغنى أغنيته الفكاهية
الهزلية الألمانية العظيمة . . انه مدرس ويحمل درجة
الأستاذية فى الموسيقى من جامعتهم ؟ !

وعلى قدر ما تذكرنا لم نكن قد استمعنا الى أغنيته
هذه من قبل . فقال الشابان انها أظرف أغنية هزلية على

الاطلاق وأضافا أنهما على استعداد لاقتناعه بغنائها لنا
ان نحن طلبنا ذلك .

وقالا - أيضا - أن الاغنية ظريفة لدرجة أنه عندما
غناها « الهر » سلوسن بوشين أمام الامبراطور
الألماني ذات مرة أغمى عليه وأضطر رجال البلاط لحمل
جلالته الى مخدعه .

وزاد الشابان بأن قالوا أنه لا يوجد من يستطيع
أداء هذه الأغنية مثلما يؤديها « الهر » سلوسن بوشين
.. انه يغنيها بوقار وجدية لدرجة يبدو منها كأنه يغنى
فى جنازة وهذا يؤدي لانفجار الضحكات أكثر وأكثر .

فقلنا جميعا أننا فى غاية الاشتياق لسماعها وأننا
فعلا فى حاجة لقدر جيد من الضحك .. ولهذا هبطا
الى غرفة الطعام وعادا ومعهما « الهر » سلوسن بوشين
.. وكان يبدو سعيدا جدا لأننا طلبنا منه الغناء وهذه
الأغنية بالذات ، لأنه صعد بسرعة وجلس مباشرة الى
البيانو دون أن ينبس ببنت شفة .

وأخذ الشابان يهمسان - بالانجليزية - وهما

يقفان ويتخذان مكانيهما خلف ظهر البروفيسور :

— أوه ، انكم ستسعدون حقا ، وسوف تضحكون
من الأعماق .

وعزف السيد سلوسن بوششين المقدمة الموسيقية
التي لم تكن تنبئ على الإطلاق بأغنية ضاحكة . . كانت
حزينة ومخيفة بدرجة غريبة ، ولكننا همسنا لبعضنا
البعض أن هذه هي الطريقة الألمانية ، وهيأنا أنفسنا
للاستمتاع بها .

في الحقيقة أننى شخصا لم أكن أفهم الألمانية جيدا
كنت قد تعلمتها في المدرسة ولكنى نسيت كل ما تعلمته
بعد تخرجى بعامين ، وقد شعرت بتحسّن ملحوظ بعد
هذا .

لكننى لم أكن أود أن أشعر أيا من الموجودين بهذا
النقص في تعليمى . لهذا خطرت لى فكرة جيدة ، على
الأقل بدت لى فكرة طيبة ، فقد ركزت بصرى على
الشابيين الواقفين خلف الأستاذ وتتبعتهما حركاتهما . .
ابتسم عندما يبتسمان ، أقهقه عندما يقهقهان . وأحيانا

كنت أضحك من تلقاء نفسي عندما استشعر شيئاً ظريفاً
ربما فأت على الآخرين .. وكنت أعتبر هذا التصرف
غاية في الذكاء ..

وبمرور الوقت وتتابع مقاطع الأغنية لاحظت أن
عيون الآخرين قد تركزت على الشابين وأخذ الكل
يضحكون عندما يضحك الشابين ويبتسمون عندما
يبتسمان وطوال الأغنية أدت هذه الطريقة - الذكية -
مهمتها على أكمل وجه .

ولكن لم يبد على الأستاذ الألماني أي شعور
بالسعادة . ففي البداية وعندما بدأنا نضحك بدأت
على وجهه علامات الدهشة وكأن الضحك كان آخر
ما يتوقع من صور التحية وأظهار الإعجاب بفنه . وقد
اعتقدت أن هذا شيء مضحك في حد ذاته ، وقلنا
لبعضنا أن طريقته الصارمة هذه هي روح الأغنية
المرحة . وعندما تمادينا في الضحك تحولت أمارات
الدهشة على وجهه الى علامات الغضب ثم نظر شئراً
إلينا جميعاً - عدا الشابين اللذين كانا مقفان خلف ظهره
قلم يرهما . وهذا جعلنا نضحك أكثر بل صحننا أن هذا

سيقتلنا من الضحك .. بل وقلنا أيضا ان الكلمات وحدها بدون تعمد الجدية من البروفيسور وكانت كافية لتغيير ضحكاتنا .. اوه ان هذا لكثير !

وانهى البروفيسور أغنيته وسط عاصفة من الضحك وعبارات الاستحسان من قبيل : « ان هذا أطرف ماسمعنا من غناء هزلى » مثلا .. بل ان بعضنا سأل البروفيسور لماذا لا يترجم أغنيته للانجليزية حتى يتسنى لعامة الناس - ممن لا يفهمون الألمانية - أن يعرفوا كلماتها ويتعلمون كيف تكون الأغنية الهزلية بحق .

وهنا وقف « الهر » سلوسن بوشين وقد فقد سيطرته على نفسه تماما وأخذ يسبنا بالألمانية محركا ذراعيه فى الهواء فى غضب عنيف موجهها إلينا كل الألفاظ البذيئة التى يعرفها فى اللغة الانجليزية .. وقال وهو فى غاية الألم أن أحدا لم يهنه فى حياته مثلما فعلنا ..

واتضح لنا بعد هذا أن الأغنية لم تكن هزلية على الإطلاق ، بل كانت تحكى عن فتاة عاشت فوق جبال هارتز وضحت بحياتها لتنفذ حياة من تحب ، ولكنها

ماتت هي الأخرى . . وتقابلت روحاهما في السماء . .
وتمضى الأغنية الى أن يفترقا ثانية في مقطعها الأخير
انى غير متأكد تماما من التفاصيل ولكن الأغنية كانت
على أية حال غاية في الحزن بل ان البروفيسور سلوسن
بوشين قال أنها تعتبر واحدة من أرق القصائد الألمانية
وأكثر حزنا . . !

كان موقفا صعبا لنا جميعا ، ولم يكن ثمة مايمكن
أن نقوله لنعتذر به . وأخذنا نتلفت حولنا بحثا عن
هذين الشابين الماكريين اللذين أوقعانا في مثل هذا
الصرج . لكنهما كانا قد تسللا للخارج بهدوء شديد
فور انتهاء « الهر » سلوسن بوشين من أغنيته . .

وكانت هذه هي نهاية الحفل . فلم يودع أى منا
أصدقاءه ، بل هبطنا لأسفل قرادى نمشى بهدوء وببطء
وأخذنا من الخدم قبعاتنا ومعاطفنا وفتحنا الباب وانتقلنا
الى الخارج وكل منا يتحاشى عيون الآخرين . وأيدا . .
أيدا لم أحاول سماع أغنيات ألمانية بعد هذا .

عبرنا هاريس وأنا (والتون) حيث أقام قيصر
معسكره ذات يوم . وعند قنطرة (واى) وجدنا جورج

بانتظارنا . . وقد حياه مونتمورينسى محدثا ضوضاء
بينما صحت أنا وزمجر هاريس . . وحرك جورج قبعبته
فى الهواء وصاح يرد على تحيقتنا فتجمع الناس بسرعة
ظنا منهم أن أحدا قد سقط فى النهر . . وبدأ عليهم
الاحباط إذ وجدوا أن هذا لم يحدث !

كان جورج يحمل فى يده حقيبة مستديرة ومقلطحة
ولها يد طويلة ملتصقة بها . . فسأله هاريس متهمكا :

— ما هذا يا جورج ؟ مقللة ؟

وأجاب جورج بنظرة حادة :

— لا انها « بانجو » . ان كان من على النهر يحملون
مثلا . . انها (مودة) هذا الموسم .

— لم أعرفك قط عازفا للبانجو . .

وفى صوت واحد قلنا أنا وهاريس :

— هل تفعل ؟ !

فأجاب جورج ببساطة :

– لا ، ليس بالضبط • ولكنها شيء سهل جدا • •
هكذا قيل لي • • كما أني اشتريت كتابا يعلمنا طريقة
العزف ، وأحمله معي ا

:: سهر الليل :: ليلاس ::
www.liilas.com/vb3

الفصل الثامن

الليلة الأولى في القارب

الآن وبعد أن تمكنا من جورج ، فرضنا عليه أن يقوم بشيء من العمل . . لم يكن بالطبع يريد أن يعمل شيئًا وأخذ يقول مبررا رفضه - أنه مر بوقت عصيب في المدينة ، ولكن هاريس الذي لم تكن الشفقة من طبعه قال بشماعة :

- آه ، الآن حان الوقت لتحصل على بعض الأوقات الصعبة فوق النهر . . كنوع من التغيير ، ان التغيير مفيد لكل انسان . . هيا ، قم من مكانك وتعال خذ المجدافين .

لم يكن من الممكن لجورج أن يتهرب من هذا رغم أنه اقترح - كوسيلة للهرب - أن يقوم هو بعمل الشاى بينما نستمر أنا وهاريس فى التجديف ودفع القارب فوق صفحة الماء ، لأن عمل الشاى - كما قال - عمل يثير الضيق وأنا وهاريس يبدو علينا الارهاق والاحتياج لكوب من الشاى . الا أن ردنا على هذا الكلام كان القاءنا بالمجدافين نحوه فتلقفهما صاغرا وبدأ يجدف .

جدف بنا جورج بقوة الى « نبتون هوك » وهناك تناقشنا فى مسألة المبيت . وقررنا أن نبيت على سطح القارب . . وكان علينا اما أن نتوقف هنا فى « نبتون هوك » أو نواصل السير الى « ستيلز » . . وبدأ لنا أنه مازال من المبكر تغطية القارب بغطائه الآن مادامت الشمس لم تغرب بعد . ولهذا اتفقنا على أن نواصل التجديف الى « رانيميد » على بعد ثلاثة أميال ونصف حيث نجد مكانا تكثر فيه الأشجار حيث نجد ما نستظل ونحتفى تحته . .

ولكم تمنينا بعد هذا لو أننا لم تغادر « نبتون هوك » . . ان التجديف ضد التيار لمسافة ثلاثة أميال ونصف

قد لا يعنى الكثير عندما يكون اليوم فى بدايته ولكن الآن
وفى نهاية اليوم يكون شيئا مرهقا خاصة اذا كان اليوم
طويلا كالذى مر بنا ..

والانسان فى مثل تلك الحالة لا يشعر بأدنى اهتمام
للمناظر الجميلة حوله .. ولن يتكلم أو يضحك ..
وسيخيل اليه - بعد كل نصف ميل - أنه قطع ميلين .
وغالبا لن يصدق أنه مازال حيث كان وقد يتهم الخريطة
بالتخريف !

كانت الساعة قد أصبحت السابعة والنصف عندما
وصلنا الى « ستيلز » .. وأخذ جورج يجدف بهدوء
ويبطء محاذيا ضفة النهر اليسرى ، باحثا عن بقعة
ترسو عندها .. كنا ننوى أن نذهب الى جزيرة « ماجنا
كارتا » الجميلة حيث تهب النسائم العليقة خلال الوادى
الأخضر . وكنا نود أن نخلد للنوم فى ركن من النهر
هادئ هناك حيث تحمينا الأشجار . ولكننا لم نجد فى
أنفسنا - فى هذه الساعة - نفس الحماس للجمال
والهدوء عند « ماجنا كارتا » - الذى كنا عليه فى
الصباح .

فكل ما كنا نتوق اليه الآن هو تناول العشاء والنوم العميق . . ولكننا على أية حال جددنا الى الجزيرة ودرنا حولها الى ركن رائع تحت شجرة كبيرة ربطنا القارب الى جذورها الممددة على الشاطئ ورسونا .

وبعد أن ربطنا القارب الى جذور الشجرة قلنا أننا سنجلس ونتناول طعامنا ولكن جورج أصر على أن نفرغ الغطاء فوق القارب قبل أن يحل الظلام ويصبح العمل عسيرا . وبعد أن تؤدي كل ماعلينا من عمل ، نجلس ونتناول طعامنا ببال خال وذهن صاف . .

احتاجُ شد الغطاء على القارب لعشاء ومجهود أكثرهما تخيل أى منا . فقد كان الأمر يبدو بسيطا عند أول نظرة ، فما عليك الا أن تأخذ ثلاث حلقات حديدية مجهزة وتثبتها فى القارب فى الثقوب المعدة لها ، ثم تشد الغطاء فوقها وتثبته فيها . . هكذا لن يستغرق العمل أكثر من عشر دقائق . أو أن هذا هو ما ظنناه فى البداية وما أسرع ماتبدى لنا سوء تقديرنا .

فقد أخذنا الحلقات الحديدية وبدأنا نضعها فى

الفتحات المخصصة لها . . بالطبع أنتم لاتعتبرون هذا العمل من الأعمال الخطرة . ولكننا - نحن - عندما نعود بذاكرتنا لما حدث في ذلك اليوم نعجب أن أحدا منا قد بقي على قيد الحياة ليروي هذه القصة الآن .

رباه ! انها لم تكن حلقات . . بل كانت أرواحا شريرة . في البداية رفضت أن توضع في مكانها باحكام . . فكان علينا أن نقفز فوقها كلها ، وندق عليها بمطرقة القارب . . وبعد أن استقرت في أماكنها اكتشفنا أننا لم نضع حلقة في مكانها الصحيح .

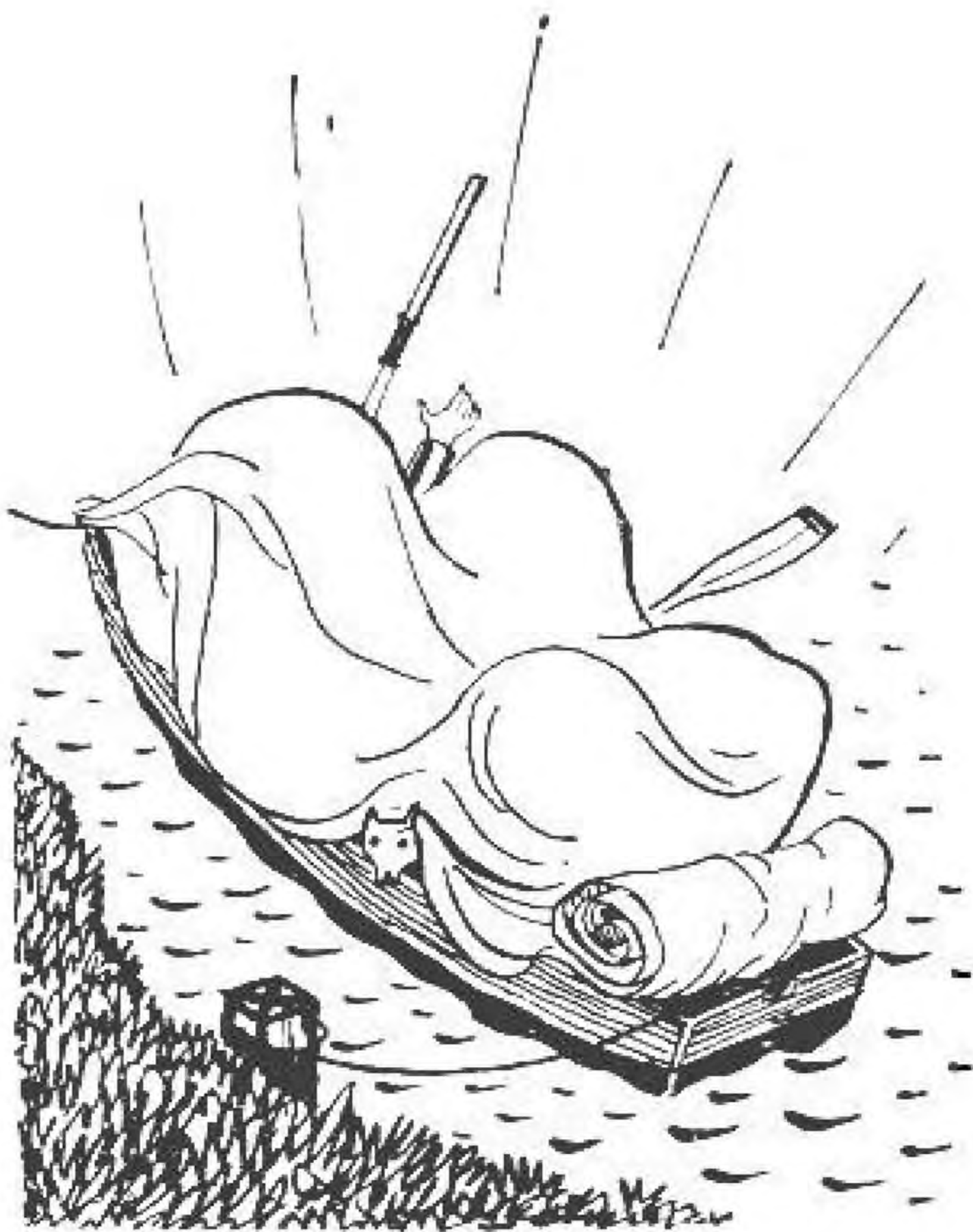
ولم تخرج الحلقات من الفتحات الخطأ الا بعد أن تعارك اثنان منا معها لمدة خمس دقائق ، بعدها قفزت خارجة فجأة محاولة أن تلقى بنا في النهر . .

ومرة أخرى بدأنا نثبتها - في أماكنها الصحيحة هذه المرة - وكنا كلما طرقتنا على طرف الحلقة لنثبتها ، ضربنا الطرف الآخر في رؤوسنا . وأخيرا تم لنا تثبيتها . . ثم كان علينا أن نعاني مثل ما عانينا وأكثر لتثبيت الغطاء في الحلقات . . فقد قرر جورج الغطاء

وثبت أحد طرفيه فى مقدمة القارب بينما وقف هاريس فى المنتصف ليأخذ الغطاء من جورج ويمرره لى حيث كنت أقف عند مؤخرة القارب لاستقباله . ولكن الغطاء استغرق وقتا طويلا ليصل الى !

فبعد أن أدى جورج نصيبه من العمل وقام به خير قيام جاء الدور على هاريس الذى كان ماكلف به من عمل جديدا عليه . وبشكل ما - لايزال غامضا - استطاع هاريس أن يجعل الغطاء يلتف حوله وأصبح سجيناً داخله . وأخذ يضرب برجليه ويديه ويتحرك بعنف ليتخلص منه دون جدوى . وأثناء حركته هذه رفس جورج الذى أخذ يتعارك بدوره فأوقع نفسه فى نفس الفخ . . !

أنا لم أدرك هذه القصة وقت وقوعها ، وشخصيا لم أفهم ماكان يحدث . فقد طلب منى أن أقف عند ذيل القارب وأنتظر الغطاء . وهذا ما فعلت . فقد وقفت - أنا ومونت مورينسى - ننتظر فى منتهى الصبر بالطبع كنا نرى الغطاء وهو يجذب ويلقى ويرفس ، ولكنى



محاولة وضع الغطاء على القارب !

ظننت أن هذا جزء من الطريقة التي يجب اتباعها لتثبيته
ولهذا لم أتدخل فيما يحدث .

وانتظرت حتى طال بى الانتظار وبدأ أن الموقف
يزداد تعقيدا ، حتى ظهرت رأس جورج من تحت الغطاء
عند طرف القارب وسمعته يقول :

— ألا تمد لنا يد المساعدة أيها الأحمق بدلا من
الوقوف هكذا غارقا في أحلامك . متى يمكنك أن تدرك
أننا نكاد نموت مخنوقين ومحاصرين في هذا الغطاء .

وبما أنى لم أتاخر أبدا عن نجدة منهوف يستنجد
بى ، فقد أسرعت وخلصتهما من الغطاء . ويبدو أنى
وصلت في الوقت المناسب تماما ، لأن هاريس كان قد
بدأ يذرق !

وبعد كل هذا ، استغرق الأمر منا أكثر من نصف
ساعة أخرى من العمل الشاق حتى أصبح الغطاء في
مكانه الصحيح . ثم نظفنا المكان وأعدنا طعام
العشاء ، فوضعنا الغلاية على الموقد عند مقدمة القارب
ونذهبنا لنجلس عند ذيله ، فهذه هي الطريقة المثلى لكى

تجعل الغلاية تعمل ، لأنها لو أحسست أنك ترقبها انتظارا
لأن يغلى ما بها لن تفعل أبدا . . . إذن عليك أن تذهب
بعيدا وتأخذ فى تناول طعامك وكأنك لن تتناول شايًا
يصنع بالغلاية بالمرّة ، وعليك ألا تراقبها أو حتى تدير
عينك ناحيتها . . . وهكذا سرعان ما ستسمعها تصفر فى
اشتياق مجنون لأن يصبح ماؤها الذى يغلى شايًا . . .

وقد استعملنا هذه الطريقة فكانت النتيجة جيدة .
وفى الوقت المضبوط كان كل شىء معدا ثم أوقدنا
المصباح وجلسنا للعشاء . . . كم كنا فى حاجة لهذا
العشاء !

وطوال خمس وثلاثين دقيقة ، لم يكن هناك صوت
إلا صوت السكاكين والشوك وصوت أسناننا وهى
تطحن الطعام . وأخيرا قال هاريس :
- آه !!

ثم أخرج قدمه اليسرى من تحته ووضع بدلا منها
قدمه اليمنى ، وبعدها بخمس دقائق قال جورج :
- آه !!

وألقى بصحنه فوق ضفة النهر ، ثم وبعد ثلاث دقائق أخرى أظهر مونتمورينسى أول علامة من علامات الرضاء منذ بدأنا الرحلة . ثم قلت أنا :

— آه !!

وارتميت على ظهري !!

ان المرء ليأخذه العجب من سيطرة المعدة على الانسان . اننا لانستطيع أن نعمل أو نفكر الا اذا سمحت لنا معدتنا بذلك . اننا عبيد بطوننا ، واذا نحن نظرنا اليها بعين العناية فسيكون النشاط والحيوية والرضا نصيب قلوبنا .

فقبل العشاء كنا جميعا — جورج وهاريس وأنا — حادى الطباع تغلب علينا الطبيعة البرية الشرسة . . وبعد العشاء أصبحنا فى غاية الوداعة نقصامر ويقتسم كل منا فى وجه أخيه بل وابتسمنا حتى فى وجه الكلب . . انتابنا شعور بالحب لبعضنا البعض ، بل الحب لكل البشر . .

فمثلاً ، ذهس هاريس قدم جورج أثناء حركته ،
وبدلاً من أن يقول بصوت كريحه « أن المرء لا بد أن
يتعثر بجزء من قدم جورج أينما تحرك في دائرة قطرها
عشر ياردات من المكان الذي يجلس فيه » قال بصوت
رقيق :

— أوه ، اننى أسف يا صديقى القديم ، أرجو ألا
أكون قد سببت لك أى ألم !

ورد عليه جورج بصوت أرق :

— لا ، على الإطلاق ، الغلطة كانت غلطتى أنا !
ورد هاريس :

— لا ، انها غلطتى أنا بالتأكيد .

وكم يكون جميلاً ومؤثراً أن تستمع لهذه المحادثة
بينهما !

بعد العشاء ، أشعل كل منا غليونيه وجلسنا فى
استرخاء نرقب الليل الساكن ونتحدث ثم خلدنا للنوم
فى العاشرة مساءً ، وكنت أعتقد أنى سأنام جيداً بعد

عناء هذا اليوم الطويل . ولكن للأسف لم يحدث ، فقد غفوت لسويغات ثم أخذ شيء ما - نبت فجأة في القارب لانه لم يكن موجودا عندما بدأنا ، كما أنه اختفى في صباح اليوم التالي - أخذ هذا الشيء يدفعني في ظهري وقد نمت برغمة لبعض الوقت وحلمت بأنني قد اقبلت عملة ذهبية ، وأنهم كانوا يحاولون فتح ثقب في ظهري لاستخراجها ، وقد فكرت أن هذا تصرف غير كريم منهم ، وقلت لهم سأعطيهم ما يعادل هذه العملة من النقود ولكنهم لم يسمعوا لي واستمروا في عملهم بخشونة وقسوة حتى استيقظت ..

وبدا لي جو القارب خائفا وكأن رأسي قد انكسر .. ففكرت أنه يحسن بي أن انزل الشاطئ لأتنسم هواء الليل البارد ، فارتديت أي ملابس وجدتها كيما اتفق ، بعضها تخصصني وبعضها تخص اما هاريس أو جورج وتسليت من تحت الغطاء ونزلت الى الشاطئ ..

كانت ليلة رائعة غاب فيها القمر وترك الأرض وحدها مع نجوم السماء . ليلة تملؤها الرفاهية

والحيوية جعلت احساسى الضئيل بالحزن يزحف
متسحبا في خجل... ليلة حانية مسحت بيدها الرقيقة على
راسي المسكين قصرت بعد قليل قادرا أن أعود للقارب
في سلام وأسافر في أحلام النوم الهاديء .

الفصل التاسع

الصباح التالي

صحوت في السادسة صباحا لأجد جورج قد استيقظ هو الآخر . وأخذنا - كلانا - نتقلب في الفراش استجداء لمزيد من النوم . ولكن دون فائدة . . لم يكن هناك أى مبرر لاستحالة الاستمرار في النوم هكذا . بل لقد كان من الأحرى بناولنا أن نسقط في نوم عميق حتى العاشرة صباحا على الأقل . فالاستيقاظ الآن في هذا الوقت المبكر دون داع لذلك يعد ضربا من الحماقة .

وقد أخبرنى جورج أن نفس هذا الموقف - وربما أسوأ منه - قد حدث له منذ عام ونصف تقريبا . .

عندما كان يعيش بمفرده لدى مسز « جيبينجز » . . فقد حدث أن تعطلت ساعته ذات ليلة وتوقفت عند الثامنة والرابع ، ولم يعرف بهذا في وقته لسبب أو لآخر ، ربما لم يملأها قبل أن ينام وعلقها فوق وسادته دون أن يلقي عليها ولو نظرة عابرة .

كان الوقت شتاء ، والنهار قصيرا جدا . وقد مر بلندن أسبوع ذو طقس مشبع بالضباب لهذا فلم يكن الظلام الذي كان يلف الدنيا - عندما استيقظ جورج من نومه هذا الصباح - يعنى أى شىء ولم يكن يشير الى الوقت بأى مؤشر . ولهذا فقد رفع جورج يده وأخذ ساعته ونظر فيها فوجد عقاربها تشير الى الثامنة والرابع !

فصاح جورج فرعا :

- يا للسماء ! اننى يجب أن أكون بالمدينة عند حلول القاسعة تماما . لماذا لم يوقظنى أحد ؟ أوه ، يا للعار !! ثم ألقى بالساعة جانبا وانتفض ناهضا من الفراش وأخذ حماما باردا وحلق ذقنه بالماء البارد فلم يكن ثمة

وقت لانتظار الماء الساخن ، وارتدى ثيابه بسرعة وألقى نظرة أخرى على الساعة التي كانت - ونتيجة للصدمة التي تلقتها عندما رمى بها جانبا - قد بدأت تتحرك فوجد عقاربها تشير الى التاسعة الا الثلث

أخذ جورج ساعته وأسرع هابطا ، وفى غرفة الجلوس وجد أن كل شيء هادئ ومظلم . . . فلا نار فى المدفأة ولا افطار معد على المائدة ، حتى قال فى نفسه : يا للعار . . . ثم قرر أن يواجه السيدة « جى » بحقيقة رأيه فيها عندما يعود فى المساء . . . ثم وبسرعة ارتدى معطفه وأخذ قبعته واختطف مظلته واندفع الى باب الخروج . . . كان الباب لا يزال مغلقا بالمزلاج فأخذ جورج يسب مسرعا « جى » ويصفها بأنها امرأة عجوز كسولة بينما كان يفتح الباب ويعدو خارجا . . .

وأخذ يعدو بقوة حتى قطع مسافة تقرب من ربع الميل . وقد أدركه أن يجد الشوارع خالية الا من بضعة أناس يسирون فرادى هنا وهناك ، كما أن كل المحلات كانت مغلقة . . . صحيح أن هذا الصباح كان صباحا دافئا ولكن ليس من الطبيعى أن تتوقف هكذا كل الأعمال

ويمكث الناس على أسرتهـم تحت أغطيتهم لجـرد أن
الصباح فى لندن يلفه الضباب . .

أخيرا وصل الى هولبورن . ووجد كل الدكاكين
مغلقة ولم يظهر أتوبيس واحد فى الأفق . . فقط كان
هناك ثلاثة رجال . واحد منهم كان الشرطى ورجل
فى عربة مملوءة بالخضراوات ، وعربة أخرى قديمة . .
أخرج جورج ساعته ونظر فيها فوجدها تشير الى
التاسعة الا خمس دقائق فتوقف مكانه وأمسك برسغه
وأخذ يعد نبضات قلبه ثم انحنى وأخذ يتحسس رجلية ،
ثم - وهو لا يزال ممسكا بساعته - توجه الى الشرطى
وسأله عما اذا كان يعرف كم تكون الساعة الآن .

ولكن الشرطى نظر اليه فى ارتياب وقال له :

- كم الساعة ؟ لو أنك أصغيت لسمعت دقائقها .
وبالفعل أصغى جورج فسمع ساعة مجاورة تدق
ثلاث دقات فقال جورج غاضبا ومندهشا :

- ولكنها لم تدق سوى ثلاث دقات فقط !

- حسن ، وكم تحبها أن تدق اذن ؟

- انها يجب أن تدق تسع دقائق !

قالها جورج وهو يشير الى ساعته . فسأله الشرطى
فى حدة :

- يا هذا . . هل تعرف عنوان بيتك ؟

وبالطبع كان جورج يعرف عنوان بيته بل وأعطى
العنوان للشرطى الذى قال :

- آه . . حسن اذن ، استمع الى نصيحتى وعد
لبيتك بهدوء وخذ ساعتك هذه معك وحبذا لو أرحقنا منها
الى الأبد .

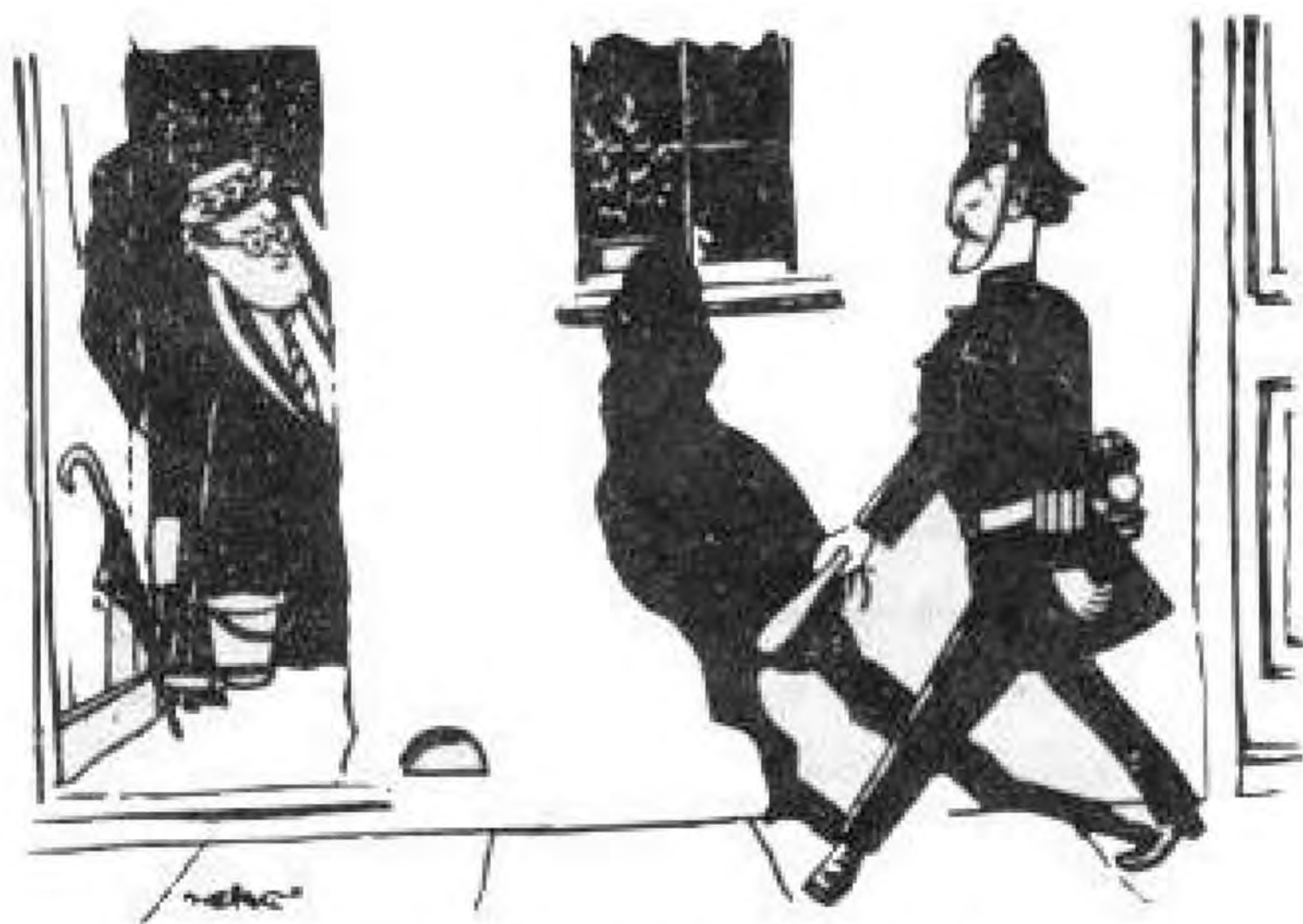
وفى البداية وفور عودته للبيت قرر جورج أن
يخلع ملابسه ويعود للفراش لينام ثانية ولكنه عندما
فكر فى أنه سيكون عليه أن يرتدى ملابسه ثانية ويأخذ
حماما آخر قرر الا يخلع ملابسه وأن يذهب لينام على
كرسى وثير .

الا أنه لم يستطع النوم ، فقد كان متيقظا جدا ،
بل أنه لم يشعر فى حياته أنه أكثر يقظة من الآن . لهذا

اضاء المصباح وأخرج بعض أوراق اللعب وأخذ يلعب نفسه ولكن هذا لم يرضه أيضا فألقى عن اللعب واستبدل به القراءة ، ولكنه لم يجد في نفسه أية رغبة في القراءة فارتدى معطفه ثانية وخرج ليتمشى قليلا .

كان الطريق موحشا ومخيفا ، وكان كل من يصادفه من رجال الشرطة ينظر اليه في ريبة وشك .. وكانوا يضيئون مصابيحهم في وجهه ، بل ويسرون وراءه ، مما جعله يشعر بأنه مثل من ارتكب جريمة ومطلوب من قبل العدالة فأخذ يتسلل هاربا الى الشوارع الجانبية ليختبئ خلف أى باب يقابله اذا سماع وقع اقدام شرطى يقترب منه ..

وطببعي أن هذا التصرف وحده كان كفيلا أن يثير شكوك الشرطة أكثر من أى شيء آخر فكانوا يحذّبونه من خلف الأبواب التى يختبئ وراءها ويوجهون اليه الأسئلة العنيفة عما كان يفعله في هذا المكان ، وعندما كان يجيب بـ « لا شيء » ، ويقول أنه قد خرج فقط ليتمشى ، قليلا (كانت الساعة الرابعة صباحا) فكانوا ينظرون



جورج يخفي من رجل الشرطة :

اليه غير مصدقين ، بل ان شرطيين اصطحابه الى عنوان بيته ليتأكدا اذا كان حقا يسكن فى هذا البيت أم انه يدعى ، ومكثا حتى فتح الباب بمفتاحه ووقفوا امام البيت يرقبانه .

عندما دخل جورج الى بيته فكر فى ان يشعل النار ويعد طعام الافطار لنفسه ، فقط ليستهلك بعض الوقت . . . ولكن بدا عليه أنه غير قادر على عمل أى شىء ، فعليه أن يخطو فوق دلو الفحم حاملا ملعقة الشاي دون أن يقع فى الدلو أو يقع هو فوقه فيحدث ضجة توقظ السيدة (جى) فتظن أن هناك لصا بالبيت فتصرخ من النافذة تنادى على رجال الشرطة فيندفع الشرطيان الواقفان بالباب الى الداخل ويقبضان عليه ويسوقانه الى المحكمة .

كان جورج قد أصبح فى حالة عصبية يرثى لها وأخذ يتخيل المحاكمة ومحاولاته المستميتة فى شرح الحقائق للقاضى . وبالطبع لن يصدقه أحد وسيحكمون عليه بالسجن عشرين عاما وستموت أمه حسرة عليه . وبعد كل هذه الأفكار السوداء ألق جورج عن فكرة

اعداد طعام الافطار ولف نفسه فى معطفه وجلس على
المقعد ذى الذراعين حتى نزلت السيدة (جى) فى السابعة
والنصف . ومنذ هذا التاريخ أقسم ألا يصحون من
نومه مبكرا فقد كان ما حدث بمثابة تحذير له .

كنا نجلس ملفوفين فى أغطيتنا بينما كان جورج
يروى قصته هذه ، وبعد أن انتهى وكزت هاريس بالمجداف
لكى أوقفه . وقد استغرقت عملية إيقافه وقتا طويلا
ولكنه أخيرا استوى جالسا فجأة مرسلا مونت مورينسى
الذى كان ينام على صدره الى آخر القارب .

بعد هذا رفعنا الغطاء ووضعنا رؤوسنا على
جوانب القارب ونظرنا الى الماء - نحن الأربعة -
فارتعدت أوصالنا . فبالأمس اتفقنا على أن نصحو
مبكرين ونقذف بالأغطية ثم نلقى بأنفسنا فى أحضان
الماء مصحوبين بصيحات السعادة . ونستمتع بسياحة
طويلة منعشة . الا أننا ولسبب ما عندما جاء الصباح ،
بدت لنا هذه الفكرة أقل جاذبية فالماء كان يبدو مظلم
وباردا والرياح حولنا تجمد النخاع فى العظام !

وأخيرا قال هاريس .

— حسن من سيكون أول القافزين الى الماء ؟

وبالطبع لم يكن شمة تسابق لنيل هذا الشرف ، بل ان جورج قد أعلن عن نياته عندما ارتد حالسا وارتدى جوربه ونبح مونتيمورينسى نباحا بائسا وكان فكره السباحة في الماء البارد — مجرد الفكرة — قد سببت له ألما عظيما . وقال هاريس أنه سيكون من الصعب أن يجد سرواله بعد أن يعود الى القارب .

ولما لم يكن من طبعى الاستسلام ، ولأنى لم أستطع تقبل فكرة الغطس فقد قررت أن أنزل الى ضفة النهر وأنثر الماء على جسمى . فأخذت منشفة معى وأخذت أزحف على حزق شجرة بتدلى نحو الماء . كان البرد قارسا والرياح الثلجية تقطع فى جسدى كالسكين ففكرت فى العودة دون أن أضع قطرة ماء على جسمى أرجع للقارب وأرتدى ملابسى فى الحال . . هذا الفضل . ولكن وبينما أنا استدير عائدا اذا بالفرع الغيبى ينكسر فأسقط أنا ومنشفتى فى الماء محدثا جلبة شديدة مثيرا

نافورة من الماء الى اعلى ، وهكذا وفجأة وقبل أن أدرك ما حدث كنت فى قلب التيار وجسدى يتعامل مع مياه نهر التيمس . . وبينما أنا أجاهد الماء سمعت هاريس يقول :

– يا الهى لقد فعلها هذا العجوز . . لم أكن أتصور أن لديه الشجاعة الكافية ليفعل هذا ، أكنت تتصور هذا يا جورج ؟

وصاح جورج موجهها كلامه لى :

– هل أنت بخير ؟ أكل شئ على مايرام ؟

– بل ممتع ، انكم حمقى فعلا لأنكم لم تنزلوا معى الى الماء . اننى لم أكن لأضيع هذه الفرصة بأية حال من الأحوال . لماذا لاتحاولون ، ان كل ماتحتاجونه هو قدر ضئيل من العزيمة .

ولكن – وبرغم كل تلك الكلمات المشجعة لم أستطع ان أقنعهم بالاقدام على النزول الى الماء .

بعد هذا وبينما كنا جميعا نرتدى ثيابنا هذا الصباح حدث شئ مضحك . فقد كنت أشعر ببرد شديد حينما

عدت للقارب - بعد سباحتي الاجباريه - ونتيجة
لارتعاشي واستعجالي انزلق قميصى من يدي وسقط
فى الماء فجبن جنونى فى الوقت الذى انفجر فيه جورج
ضاحكا . ولم أجد سببا واحدا لهذا الضحك . وقلت
لجورج ان قهقهته هذه ليس لها مبرر . ولكنه لم يرد
الا ان تمادى فى ضحكاته الهستيرية . . انتنى لم
اصادف فى حياتى رجلا يضحك كثيرا بسبب وبدون
سبب كجورج ، وقد صارحته برأى فيه فقلت له انه رجل
أحمق بلا عقل ، ولكن هذا لم يروعه واستمر يقهقه .

وبينما أنا أنتشل القميص من الماء اكتشفت أنه ليس
قميصى بل . . قميص جورج ! فقد كنت أحاول ارتداء
قميص جورج ظنا منى أنه قميصى نتيجة استعجالى .
وهكذا بدت لى طرافة الموقف لأول مرة فأخذت أضحك
وكلما نقلت بصرى بين وجه جورج الضاحك وقميصه
الذى يقطر ماء ازداك اغراقا فى الضحك ، حتى سقط
منى القميص فى الماء ثانية ، فقال لى جورج من خلال
قهقهته :

ألن . ها . ها . ألن تخرجه من الماء ؟

ولم أستطع أن أجيبه على سؤاله في الحال لأنني
لم أكن أستطيع إمساك نفسي عن الضحك وأخيرا
استطعت أن أقول له من خلال ضحكاتي :

– انه ليس قميصي .. بل – بل هو قميصك أنت .
ها .. ها .. ها .. !!

ولم أر في حياتي وجه انسان يتحول من الضحك
الى الغضب بمثل هذه السرعة فقد صرخ جورج :

– ماذا ؟ أيها الحمار الغبي ! لماذا لاتستطيع أن
تكون أكثر عناية بالأشياء ؟ لماذا لم تأخذ ملابسك وتذهب
لترتيديها على الأرض ؟ أنت لست أهلا لتبقى على ظهر
قارب .

حاولت أن أجعل جورج يرى مدى طرافة الموقف .
لكنه لم يستطع فجورج يصبح أحيانا رجلا لا يقدر على
فهم الدعاية وتقبلها .

اقترح هاريس أن نقلى بعض البيض للافطار .
وتطوع للقيام بذلك .. فمن وجهة نظره أنه كان يجيد

قلى البيض . وهو يقوم عادة بهذا العمل عندما يبحر مع أصدقائه لدرجة أنه أصبح مشهورا به . ان من يتذوق - حسب كلامه - بيضه المقلى ولو مرة يصير لايشتهى أى لون آخر من ألوان الطعام ، بل قد يعاف كل شيء ويظل ينحف وينحف حتى يكاد يموت ان لم يأكل ثانية من بيض هاريس المقلى .

وجعلتنا قصص هاريس عن البيض المقلى نشعر بالجوع فعلا ، فأعطيناه الموقد والمقلاة وما تبقى من البيض ، الذى تكسر معظمه ولوث بقية الأشياء التى فى السلة ، ثم تضرعنا الى هاريس أن يكف عن الكلام ويبدأ فى قلى البيض . . . وقد واجه بعض الصعوبة فى تكسير البيض ، فى الحقيقة ليس فى تكسيـره بالتحديد ، ولكن فى تكسيـره دون أن يلوث سرواله وفى وضعه داخل المقلاة بالضبط . أخير استطاع أن يضع ست بيضات فى المقلاة وجلس بجوار الموقد يقلبها بالشوكة .

وقد بدأ عمله متعبا - على حسب تصورى أنا

وجورج - فقد أحرق هاريس نفسه عندما اقترب من
المقلاة وهي على الموقد ، فألقى بكل شيء في يده وأخذ
يرقص حول الموقد وهو يهز أصابعه في الهواء ويصرخ
وكنا كلما نظرنا ناحيته نجده يفعل نفس الشيء فظننا
أن هذا طقس من طقوس قلى البيض التى تعلمها
هاريس .

فلم نكن ندري بالضبط أى نوع من البيض المقلى
يصنع هاريس ، وقد خمننا أنه ربما يكون طبقا من
أطباق الهنود الحمر ويستدعى صنعه نوعا معينا من
الرقص بالاضافة الى بعض الكلمات السخرية حتى
يطهى جيدا . وبدا الأمر كله من أكثر الأمور إثارة ،
وقد حزنا - أنا وجورج - كثيرا حينما انتهى هاريس
من صنعه أخيرا .

ولكن لم تكلل - على ما يبدو - جهود هاريس
بالنجاح الذى كان يتوقعه . فقد كان النجاح بنسبة
ضعيفة اذا قورن بالجهود الشاقة التى بذلها هاريس ،
فقد وضع ست بيضات فى المقلاة وكان كل ماخرج لنا
هو مقدار ملعقة من خليط محروق .

قال هاريس أن الخطأ كان خطأ المقلادة وأن الطبق كان سيخرج أفضل من هذا بكثير لو أننا أحضرنا معنا مقلادة من نوع معين وموقد غاز . ولهذا قررنا ألا نحاول صنع هذا الطبق ثانية حتى نحضر هذه التجهيزات التي طلبها هاريس . .

وبعد انتهائنا من تناول الافطار ، كانت الشمس قد ازدادت سطوعا وهبطت حدة الرياح وصار الطقس كأبدع مايتمنى الانسان . .

كان كل ماحولنا يذكرنا بالقرن الثالث عشر . وبينما كانت ابصارنا ترى النهر خلال أشعة الشمس الذهبية تخيلنا وكأن القرون قد انطوت حتى عادت بنا الى ذلك الصباح الخالد من شهر يونيو عام ١٢١٥ . . وتخيلنا أننا أبناء فلاحين انجليز نرتدى ثيابا من الغزل الوطنى اليدوى ونقف هناك لنكون من شهود كتابة هذه الصفحة المجيدة من التاريخ ، عندما أجبر الملك « جون » على التوقيع على « الماچنا كارتا » أو « اللوحة العظيمة » التي صارت حجر الزاوية فى معبد الحرية فى انجلترا

وأخذت أتخيل المنظر في هذا اليوم العظيم وما حدث ساعة بساعة ، فعند المرسى الذى يمتد بطول الشاطئ من « ستيفنز » . . كانت تسير مجموعات من رجال الجيش ممثلة حتى آخر ما يستطيع البصر أن يمتد . . وكان الطريق يبدو سميكاً مزدحماً بالصلب اللامع والخيل المطهمة . وكان صياح الفرسان يعلو من مجموعة الى أخرى والأعلام الصغيرة تتماوج فى الهواء بكسل . ومن وقت لآخر يحدث اضطراب أعمق فى الصفوف عندما تتحرك الجموع لتفسح الطريق ليمر أحد السادة العظام فوق جواد الحرب محفوقاً بحرسه من الفرسان فيتقدم ويأخذ مكانه على رأس رجاله .

أما فوق التل وفى المواجهة تماماً ، كانت تقف جموع القرويين المبهورون وأهل المدينة الفضوليون . وكل فرد لديه قصة يرويها عن الحدث الذى جاء خصيصاً لمشاهدته . البعض يقول أن خيراً عظيماً سيعم البلاد من جراء ما سيحدث الليلة ، بينما يهز بعض الرجال المسنين رؤوسهم غير مصدقين فيأطالوا سمعوا مثل هذه الحكايات من قبل دون تغيير حقيقى .

كان النهر كله حتى بلدة « ستينز » مبرقشا بالقوارب المتناثرة ، تتزاحم حتى أن بعض القوارب جرّوت على الاقتراب من البارجة التي ستقل الملك جون شخصيا الى المكان الذي تنتظر فيه اللوحة الكبرى توقيعه الخالد .

وعند الظهر ، عند بداية المرسى ، تبدأ سحابة ترابية صغيرة تتصاعد ثم تكبر وتقترب أكثر فأكثر ويعلو صوت الجلبة التي تثيرها الخيل . . . يعلو ويعلو . . . ومن هنا وهناك تبرز مظاهر رائعة من الفرسان والسادة العظام يتزيون بأزياء ذات ألوان زاهية مبهجة . بينما فى الخلف وفى الأمام وعلى الجوانب ، كان يقف آباؤنا صانعين ممرا للسادة وفرسانهم ، وفى وسط الجميع كان الملك جون .

كان الملك يمتطى صهوة جواده متوجها الى حيث تقبع البارجة الملكية على أهبة الاستعداد ، بينما توجه السادة الكبار لاستقباله . فحياهم بابتسامة ثم ضحكة وبضع كلمات المجاملة ، وكانما هو مدعو لحفل أو لعيد أقيم على شرفه . ولكن ما أن استقر بفرسه حتى

مرق بسرعة ودار خلف فرسانه الفرنسيين يحتفى بهم
ويوجههم فى اتجاه الصفوف المجيدة التى يقف فيها
السادة العظام الذين أحاطوا به . .

ولكن الوقت كان قد فات لمثل هذا ، وفجأة انطلق
تفجير رهيب من أحد الفرسان فى جانب الملك أعقبه صيحة
على جنوده والفرنسيين ثم هجمه شراسة على صفوف
السادة العظام غير المستعدين لمثل هذه الحركة . وربما
شعر هؤلاء اللوردات بالأسف لأنهم عارضوا خطة
الملك وربما كان سيكتب لكأس الحرية أن ينكسر وهو على
شفتى انجلترا ويبقى لها - لانجلترا - مذاق الحرية
على شفتيها مئات السنين

ولكن قلب الملك جون انهار وارتجف أمام وجوه
الجنود الانجليز القاسية . وتقهر جيش الملك عائدا الى
مكانه . . أما الملك فقد نزل عن صهوة جواده واتخذ له
مقعدا على البارجة الملكية بينما كان السادة يتبعونه
وأيديهم فوق سيوفهم . ثم أعطى الأمر للقافلة بالتحرك .
وببطء شديد أخذت الجوارح الثقيلة تغادر شواطئ

« رانيمير » .. وأخذت تسير حثيثا ضد التيار حتى وصلت الى ضفاف الجزيرة الصغيرة التي حملت ومنذ ذلك الوقت اسمها الشهير (الماجنا كارتا) حيث نزل الملك جون من بارجته وتوجه الى اللوحة العظيمة ينما كان الناس يقفون حائسي الأنفاس في ترقب مهيب، الى أن شقت عنان السماء صيحة عظيمة تعلن عن وضع حجر الأساس في بناء الحرية في انجلترا .. !

:: سحر الليل :: ليلاس ::
www.liilas.com/vb3

الفصل العاشر

مغامرات مع قارب وعلبة من الصفيح

بينما أنا جالس على ضفة النهر سابحا في خيالاتي مع هذا المشهد العظيم ، اذا بجورج يناديني قائلا بسخرية أنى اذا كنت قد أخذت وافرا من الراحة ، فبال تأكيد لن أمانع في أن أعاون في عملية الغسيل .. وهكذا وبما أنى قد انتزعت بهذه الطريقة من ذكريات الماضى المجيد الى واقع الحياة العادية ، فقد انزلت الى القارب وأخذت أنظف المقلاة بواسطة عصا وحفنة من الأعشاب البحرية ثم مسحتها بقميص جورج المبلول

بعد هذا ذهبنا الى جزيرة (ماجنا كارتا) والقينا
نظرة على الحجر الذى ينتصب داخل كوخ هناك والذى
يقال أن الوثيقة العظيمة قد وقعت عليه . ثم عدنا الى
القارب وبدأنا الاستعداد لاستكمال رحلتنا .

كانت المسافة من الجزيرة الى هويس « وندسور »
القديم منطقة جميلة من النهر . . فالطريق يمتد ظليلا مع
ضفة النهر وقد تناثرت عليها هنا وهناك أكواخ صغيرة
جميلة . . ان « وندسور القديمة » تعتبر مكانا شهيرا .
فقد امتلك الملك « ادوارد المعترف » - المتوفى سنة
١٠٦٦ - قصرا فى هذا المكان . . وهنا أيضا ثبت أن
« ايرل جودوين » كان مذنبا فيما نسبته اليه محكمة
هذا العصر من تهمة قتل شقيق الملك . فقد وقف « ايرل
جودوين » ممسكا بقطعة كبيرة من الخبز فى يده قائلا
أنه اذا كان حقا مذنبا فإن قطعة الخبز هذه ستلتصق
بحلقه وتقتله . وبالفعل وضعها فى فمه وحاول أن يبتلعها
ولكنها علقت بحلقه وأغلقت فمات مختنقا . . !

بعد أن تجاوزنا (وندسور القديمة) أصبح النهر

معملا الى حد ما . ولهذا جدفنا بالقارب ، أنا وجورج ،
حتى وصلنا الى جزيرة (مونكى) او جزيرة القرد . .
حيث توقفنا لتناول الغداء . وقد قررنا أن نتناول لحم
البقر البارد ، ثم اكتشفنا اننا لم نحضر المستردة .
ولا اعتقد أنى قد شعرت برغبة فى تناول المستردة مثلما
شعرت فى ذلك اليوم . اننى لا أهتم - عادة - بوجود
المستردة ، بل انى قد توقفت عن أكلها تماما منذ فترة .
ولكنى كنت على استعداد لأن أدفع (أى شىء) مقابل
بعض المستردة فى ذلك اليوم !

وقال هاريس هو الآخر أنه على استعداد لأن يدفع
(أى شىء) مقابل بعض المستردة وكذا قال جورج . .
أوه . . انه ليكون يوم السعد لأى انسان يتصادف مروره
بنا وهو يحمل بعض المستردة فقد كان سينال من (أى
شىء) مايكفيه العمر كله .

شعرنا بتعاسة شديدة لعدم وجود مستردة ، فأكلنا
اللحم البقرى فى صمت حزين . بينما بدت لنا الحياة
عبثية خالية من المتعة . وأخذنا نتذكر أيام الطفولة
السعيدة ونتحسر . ولكن حالنا انقلبت الى السرور

عندما أخرج جورج علبة فاكهة من قاع السلة ، فقد كنا جميعا نحب الفاكهة المحفوظة ونظرنا الى الصورة المطبوعة على العلبة ثم نظر كل منا للآخر في سعادة بينما جهر هاريس ملعقته .

ثم بدأنا البحث عن فتاحة العلب ، فأخرجنا كل شيء كان في السلة . ثم كل شيء كان في الحقيقية بل لقد انتزعنا ألواح قاع المركب ثم حملنا كل شيء الى ضفة النهر وأخذنا نهزه بعنف علنا نجدها ولكننا لم نعتز على فتاحة العلب . .

بعد هذا حاول هاريس أن يفتح العلبة بمطواة الجيب فكسر المطواة وجرح نفسه . . ثم حاول جورج فتح العلبة بواسطة القص ولكن القص طار من يده وكاد أن يخرق عينيه ، وبينما جلسا يداويان جرحهما كنت أنا أحاول أن أصنع ثقباً في العلبة بواسطة الطرف المدبب لخطاف القارب ولكن الخطاف انزلق في الوحل فيما بين القارب وضفة النهر ، بينما خرجت العلبة - دون أن تصاب بأي شيء - وكسرت قدح الشاي .

وجن جنوئنا من الغضب فذهب هاريس الى حقل

مجاور وأحضر حجرا حادا وذهبت أنا الى القارب
وأحضرت مجدافا . وأمسك جورج بالعلبة ووضع هاريس
الطرف الحاد من الحجر على قمة العلبة بينما رفعت أنا
المجداف عاليا في الهواء واستجمعت كل قوتي وهويت
بالمجداف فوق العلبة .

كانت قبعة جورج المصنوعة من القش هي التي
أنقذت حياته في ذلك اليوم . انه يحتفظ بهذه القبعة حتى
الآن . أو لنقل ماتبقى منها - وهي أمسيات الشتاء
وحول نيران المدفأة يريها لأصدقائه ويحكى لهم القصة
مع بعض اللمسات الخيالية الجديدة في كل مرة .

بعد هذا وبينما عاد هاريس ببurch عميق في اللحم ،
أخذت أنا العلبة وأخذت أطرقها بالمجداف حتى نالني
التعب والاحباط ، ثم انضم الى هاريس وطرقناها حتى
صارت مسطحة ثم طرقناها حتى صارت مربعة ، وطرقناها
حتى اكسبناها كل شكل ممكن . لكننا لم نستطع
ان نفتح ولو ثقباً واحداً فيها . ثم أخذها جورج وصار
يطرقها حتى اكتسبت شكلا غريباً ومخيفاً مما جعل

جورج يلقي بالمجداف بعيدا .. وبعد هذا جلسنا حولها
- نحن الثلاثة - نحدق فيها !

كان هناك تجويف كبير عند قمة العلبة اتخذ شكل
ابتسامة ساخرة .. وقد أثارت هذه الابتسامة غضبنا
أكثر من أى وقت مضى . فأمسك بها هاريس وألقى بها
كل قوته بعيدا الى منتصف مجرى النهر وبينما كانت
تغوص فى الماء كنا نحن نصب عليها لعناتنا .. ثم
عدنا الى القارب وأخذنا نجذف بلا توقف حتى بلغنا بلدة
ميدنهيد ، .. أى رأس العذراء ..

جاورنا (ميدنهيد) ، ثم سرنا ببطء أكثر خلال
المنظر الخلابة التى صادفتنا فى منطقة ميدنهيد .
وما أن تناولنا الشاي حتى أحسسنا بريح قوية تدفعنا
للأمام وكان هذا مفاجئا لنا ، فعادة ماتكون الرياح
معاكسة لك أينما توجهت على صفحة النهر ، انها تبدأ
ضدك عندما تبدأ أنت التجديف فى الصباح وتظل تفكر
فى رحلة العودة وكيف ستكون سهلة وأنت تفرد شراعك
ليستقبل الريح .. ولكن وبعد نهاية اليوم تتغير الرياح



محاولة فتح العلبة الصفيح !

فيصير ضدك أيضا فى رحلة العودة ويكون عليك أن
تجذب بقوة ضد الريح وضد التيار معا .

ولكن فى هذا المساء بالتحديد ، يبدو أنه حدث خطأ
ما فاستدارت الرياح قدفعنا من الخلف بدلا من أن تواجهنا
ففردنا شراع قاربنا قائملاً بالهواء واندفع القارب على
صفحة الماء .

وكنتم أقوم بتوجيه الدفة . . .

ليس هناك أجمل من أن تقلع بشراع تملأه الريح .
ان أجنحتها المندفعة ستبدو كأنها تحملك معها . حتى
تصبح جزءا من الطبيعة . بينما يغنى الهواء لك
والأرض تبدو بعيدة وصغيرة والسحب القريبة من رأسك
تبدو كأنها أخوة وأنت تفتح ذراعيك لتحتويها .

كنا وحدنا على صفحة النهر فيما عدا - وعلى مسافة
بعيدة - قارب صيد بدا لنا فى الأفق وهو يقف وحيدا
وسط المجرى المائى وعليه ثلاثة صيادين . . وأبحرنا
بسرعة ونعومة مجاوزين الضفاف ذات الأشجار وقد
خيم علينا الصمت .

وكنتم أقوم بتوجيه الدفة ..

وعندما اقتربنا من الصيادين الثلاثة تبين لنا أنهم
كبار فى السن وعليهم وقار وهدوء . وكانوا يجلسون فى
قاربهم ينظرون الى شباكهم بانتباه . كانت الشمس
الغاربة الحمراء تلقى بأضواء سحرية على الماء ،
وتلمس نيرانها أطراف الأشجار العالية ، وتصبغ
السحب بلون ذهبى مجيد .. كانت لحظة من لحظات
الجمال العميق فى الكون . وكنا كقرسان الحكايات
القديمة نبحر عبر بحيرة غامضة فى مملكة الغروب
المجهولة .. !

اننا لم نذهب فى الحقيقة الى مملكة الغروب ولكننا
كنا نسير فى خط مستقيم فى اتجاه الصيادين الثلاثة
ولم ندرك ماذا حدث فى البداية لأن الشرع أغلق
المشهد . ولكننا ومن صرخات الغضب التى حملها الهواء
الينا أدركنا أننا صرنا بالقرب من كائنات بشرية وأنهم
ربما شعروا بالضجر والضيق بسببنا .

أنزل هاريس الشرع ورأينا ما حدث . فقد ارتطمنا

بالرجال الثلاثة والقينا بهم فى قاع القارب . . وكانوا الآن يحاولون الخلاص بأقدامهم وهم يزيحون السمك عن أجسامهم وأثناء هذا كان يصبون علينا لعناتهم وسبابهم .

فقال لهم هاريس أنه كان يجب عليهم أن يكونوا شاكرين لنا لإضافة شيء من الاثارة لعملهم . . ثم أنه - أى هاريس - قد أصابه الحزن من جراء رؤيته لرجال فى مثل سنهم ووقارهم يخرجون عن وقارهم بهذه الطريقة . ولكن كلامه هذا لم يخفف من أثر فعلتنا . .

قال جورج أنه سيتولى الدفة بعد هذا . وأضاف أن عقلا كمعقلى لا يصلح لتولى توجيه القارب . . وأنه يجب أن أترك انسانا أكثر طبيعية وواقعية يتولى أمر القارب قبل أن نفرق جميعا . ثم أخذ الدفة وقادنا الى مدينة (مارلو) وهناك تركنا القارب ونزلنا الى البر لنقضى ليلتنا فى فندق صغير . .

:: سحر الليل :: ليلاس ::

www.liilas.com/vb3

الفصل الحادى عشر

• • مونتيموريشى

تعتبر مدينة « مارلو » من أكثر المراكز النهرية التى عرفت بها . فهى مدينة أعمال تعج بالحياة وهى وان لم تكن مدينة بديعة - اجمالا - الا ان بها العديد من الأماكن التى تتميز بطابعها القديم . كما أنها محاطة بالحقول الجميلة والمروج الخضراء الفسيحة ، حيث يمكنك التريض على قدميك بعد ابحار طويل بالقارب . هذا بالإضافة الى أن النهر ذاته رائع الجمال فى تلك البقعة • •

ويمكننا أن نرى - الى أعلى قليلا فى النهر - آثار

دير « ميدينهام » ، وهو البيت الدينى للاخوة البندكتيون
ابان القرن الثالث عشر . والاخوة البندكتيون هم رهبان
كانوا يلبسون الثياب الخشنة ولا يقربون اللحم أو
السّمك أو البيض فى طعامهم ، وينامون على القش .
وكانوا يقومون للصلاة فى منتصف الليل وفوق كل هذا
كانوا يصومون عن الكلام فتجدهم يحيون فى سكور
كسكون الموت .

استيقظنا مبكرين - صباح الاثنين فى « مارلو » -
وتوجهنا للحمام قبل الافطار . وفى طريق عودتنا اقترب
مونتمورينسى فعلا غاية فى الحماسة . ان الموضوع
الوحيد الذى اختلف فيه مع مونتمورينسى هو الققط ،
فأنا أحب الققط بينما لا يحبها مونتمورينسى .

وعندما أقابل قطة فى الشارع اداعبها بلطف وأنحنى
عليها وأمسح بحنو على رأسها ، فترفع القطة ذيلها فى
الهواء وتقوس ظهرها وتظل تدلك جسمها فى سرالى
بحب ووداعة . أما مونتمورينسى فانه ان صادف قطة
فحتما سيعرف الشارع كله بأمر هذا اللقاء ، فالضوضاء
الناجمة عنه قد تصم الأذان .

اننى بالطبع لا ألوم كلبى على هذا ، لأننى اعتقد
أن كراهيته للقطط هى أمر غريزى فيه . فالكلاب التى
من نفس فصيلة مونتمورينسى تولد وبها من الشراسة
أربعة أضعاف عافى أية فصيلة أخرى من الكلاب . .
ويستلزم الأمر مجهودا وصبرا من رجل عطوف حتى
يتم ترويضها ويحسن من طباعها .

اننى أذكر يوما كنت أقف فيه فى مدخل أحد متاجر
لندن الكبيرة ومن حولى كانت تقف مجموعة كبيرة من
الكلاب تنتظر أصحابها الذين كانوا يتسوقون داخل
المتجر . أنواع كثيرة من الكلاب فقد كان هناك كلبان
من كلاب المراعى ، وكلب من فصيلة « البولدوج » وآخر
من فصيلة « سان برنار » وبعض الكلاب من نوع
« النيو فوندلاند » وكلبا صيد من فصيلة « اليوركشير »
وبودل فرنسى وبعض الحيوانات الصغيرة التى فى
حجم الفأر .

كانوا جميعا يجلسون فى صمت ووداعة يخيم عليهم
سلام مهيب . وبعد فترة أتت سيدة شابة وجميلة تمسك

فى يدها بمقود كلب لطيف المظهر من فصيلة « فوكس »
- وهى نفس فصيلة مونتيمورينسى - وتركته عند الباب
مقيدا بين البولدوج والبودل الفرنسى . جلس الكلب
« الفوكس » ونظر الى جيرانه ثم رفع بصره الى اعلى
وبدا من تعبيرات وجهه أنه كان يفكر فى أمه . ثم فتح
فمه على اتساعه وكأنه يتثائب ثم دار ببصره مرة أخرى
فى الكلاب التى كانت تجلس حوله فى صمت وجلال .

نظر عن يمينه الى البولدوج الذى كان نائما يحلم ،
ونظر عن يساره الى الودل الفرنسى الذى كان يقف فى
غرور وخيلاء . . ثم وبدون سابق انذار وبلا أى سبب
عض الودل الفرنسى فى قدمه الأمامية اليمنى فانطلقت
فى الفضاء صيحة ألم عظيمة .

سر « الفوكس » بما فعل فقرّر أن يستمر وقفز فوق
لبودل وهاجم كلب المراعى الذى كان نائما فصحا .
وفى الحال بدأت معركة حامية الوطيس مع « الودل » !
بينما عاد « الفوكس » الى مكانه وأمسك البولدوج من
أذنه محاولا أن يرمى به بعيدا . مما جعل البولدوج
يهاجم كل من استطاع أن يصل اليه بما فى ذلك حارس

البوابة وترك « للفوكس » الفرصة ليستمتع بمعركة أخرى بينه وبين « اليوركشير » .

وهكذا أخذت كل الكلاب التي في المكان تتقاتل وكان حياتها معلقة على نتيجة هذه المعركة . كانت الكلاب الكبيرة تتصارع مع بعضها البعض بينما تتعارك الكلاب الصغيرة فيما بينها ، ومن وقت لآخر تعض الكلاب الكبيرة في أرجلها . . . !

وصار مدخل المتجر ساحة معركة وامتلاً بعاصفة من الضوضاء وتجمع الناس يتزاحمون ليعرفوا من الذي قتل . وجاء رجال معهم أعمدة وأطواق وحاول أن يفصلوا ما بين الكلاب ثم حصر رجال الشرطة .

وفي وسط كل هذا جاءت السيدة الشابة الجميلة والتقطت كلبها الحميل ! - الذي كان قد عض الكلب اليوركشير عضه مريرة - بينما ارتسمت على وجهه امارات البراءة فقبلته وسأله برقة ان كان قد تعرض للاصابة من أحد تلك الكلاب الشرسة ، فرد عليها بعينيه البريئتين النظرات وكأنه يقول :

— أوه ، اننى سعيد أنك أتيت لتحملينى بعيدا عن
هذا المشهد القضيع .

هذه هى طبائع الكلب « الفوكس » ، لهذا فأنا لا
ألوم « مونت مورينسى » لكونه حادا مع القطط . الا أنه
هو نفسه تعنى لو أنه لم يكن كذلك فى هذا الصباح .

فبينما كنا عائدين من الحمام وفى منتصف
الطريق على الشارع الرئيسى ، اندعشت أمامنا فجأة
قطعة خرجت لتوها من أحد المنازل وبدأت تجرى بسرعة
عبر الشارع ، فأطلق مونت مورينسى صيحة فرح عظيمة
.. صيحة كصيحة جندى عديم الرحمة رأى نصره
بعينه وأخذ يطارد أعداءه المنسحبين ..

كان عدوه هذه المرة قطعة كبيرة سوداء لم أر أكبر
ولا أقبح منها منظرا من قبل . كانت قد فقدت ذيلها
واحدى أذنيها وجزءا كبيرا من أنفها . كانت حيوانا
طويلا مخيفا كله عضلات ، وكانت تبدو وديعة هادئة
البال .

اندفع مونت مورينسى خلف القطعة المسكينه بسرعة

عشرين ميلا في الساعة . لكن القطّة لم تسرع بالفرار بل لم يبد عليها أنها قد فهمت أن حياتها في خطر فظلت تسير بهدوء حتى أصبح الكلب القاتل على بعد خطوة واحدة منها فاستدارت وجلست في منتصف الطريق ونظرت الى مونتمورينسى بتحد وكأنها تقول له :

- نعم ، هل تريدنى ؟

ولم تكن الشجاعة تنقص مونتمورينسى على الإطلاق ولكن لابد أن شيئا ما في نظرات تلك القطّة جمد الدماء في شرايين الكلب الشجاع . فتوقف فجأة ونظر بامعان في وجه القطّة .. لم يكن ثمة كلام ولكن الحديث الذى يتخيله المرء أنه دار بينهما كان كما يلى :

القطّة : هل يمكننى تقديم أى شىء لأجلك ؟

مونتمورينسى : لا .. لا شكرا !

القطّة : لاتخش الكلام ان كنت حقا تريد شيئا ..

مونتمورينسى (وهو يتفهم) : أوه ، كلا .. على

الإطلاق . لا داعى لأن تقلقى نفسك لأجلى . أخشى

أنى . . أنى قد ارتكبت خطأ ما فقد ظننتك شخصا آخر
أعرفه . أعتذر لمضايقتك وشكرا .

القطة : لاداعى للشكر ، ولكن هل أنت متأكد من أنك
لا تريد منى أى شىء الآن ؟

مونت مورينسى (وهو لا يزال يتقهقر) : لا . . لاشىء
شكرا . . لاشىء على الإطلاق ! انك كريمة حقا أسعدت
صباحا .

القطة : أسعدت صباحا . . !

وعاد الكلب وقد وضع ذيله بين فخديه واتخذ له
مكانا مهما بيننا . وحتى هذه اللحظة لو أنك نطقت
أمامه بلفظ قطة ، فإنه سيرتعد وينظر اليك باستعطاف
يرجوك ألا تفعل !!

بعد الإفطار ذهبنا نتسوق ونشتري ما يكفيننا لثلاثة
أيام . وقال جورج أننا يجب أن نشترى بعض
الخضراوات الطازجة حيث أنه من الضار بصحتنا أن
يخلو طعامنا منها لفترة طويلة . وقال أن طهيها سهل

وأنه سيتولى هذا الأمر . . فاشترينا عشرة أرطال من البطاطس وكمية كبيرة من الفاصوليا وبعض البصل وبعض شرائح اللحم وبعض الفاكهة بالإضافة الى قطع الدجاج الروسـتو . وفى جولتنا بالمدينة اشـترينا بعض الفاكهة والكعك والخبز والمربى والزبد والبيض وأشياء أخرى .

كانت جولتنا فى مدينة « مارلو » ناجحة تماما . فعند كل متجر كنا نقف أمامه ونصر على أن نشترى منه بعض الأشياء . وكنا ننتظر حتى يحزم لنا البائع حقيبة الأشياء ثم نأخذ صبي المتجر معنا ليحملها لنا ، وقد ذهبنا لعدة متاجر واتبعنا هذا النظام عند كل متجر . فكانت النتيجة هى أنه بانتهائنا من الشراء كان عندنا مجموعة رائعة من صبيان المتاجر يحملون سلال المشتريات ويسيرون خلفنا . وهكذا لابد أن مسيرتنا من وسط المدينة الى ضفة النهر كانت أكبر مظهرة شهدتها مدينة « مارلو » منذ وقت طويل .

وكان ترتيب المسير فى المظاهرة كالتالى :

مونتمورينسى يحمل فى فمه قطعة من عصا . .

كليان قبيحا المنظر من أصدقاء مونتمورينسى ..
جورج حاملا المعاطف والأغطية وفي فمه غليونته
الصغير ..

هاريس يحاول الا يتعثر وهو يحمل حقيبة جلدية
تكاد تنفجر مما بها في يد ، وفي يده الأخرى يحمل
زجاجة عصير برتقال ..

ثم صبى البقال وصبى الخباز يحملان السلال ..
ثم صبى من الفندق يحمل سلة ..

ثم كلب طويل الشعر من كلاب الطريق ..

ثم رجل عجوز يحمل حقيبة وبجواره صديق حميم
له يضع يديه في جيوبه بينما يضع في فمه غليونا قصيرا
منحينا ..

خلفه يسير صبي الفكهاني يحمل سلة الفاكهة .

ثم .. أنا أحمل ثلاث قبعات وزوجا من الأحذية
ذات الرقبة ..

ثم ستة أطفال صغار وأربعة كلاب ضالة ..
وعندما وصلنا الى مرسى القوارب قال لنا حارس
المرسى :

- دعنى أساعدك ياسيدى أين سفينتكم أو يختكم
هنا ؟ ؟ !

وعندما أخبرناه أن مالنا فى المرسى انما هو قارب
صغير بمجداقين وشرع صغير بدت على الرجل أمارات
الذهول .

واجهتنا فى هذا اليوم بعض المتاعب مع القوارب
البخارية التى كانت تملأ صفحة النهر رائحة غادية فى
أعداد كبيرة فالיום هو اليوم السابق على أسبوع سباق
« هنلى » للقوارب البخارية .

بعض هذه « القوارب البخارية » كان يسير منفردا
وبعضها الآخر يصحبه يخت للمبيت . اننى أكره
القوارب البخارية وأظن أن كل من يستعمل القوارب
ذات المجداقين يكرهها مثلى . فهى تصدر ضوضاء

كريمة تثير كل نوازع الشر في نفسى درجة اننى اتمنى
لو قدر لنا العودة الى ذلك الزمان الذى كان يمكننا فيه
أن نقول رأينا بصراحة مطلقة فى وجه الآخرين
باستعمال البلطة والسهم والقوس .

اننى على ثقة تامة أن صوت نفيها المزعج المستبد
يأمرك بالابتعاد وافصح النهر لها وحدها يعتبر فى حد
ذاته عذرا وجيها لك لو أنك اتهمت بجريمة قتل أحد
أصحابها أمام محكمة تشكل من رجال النهر .

وحدث أن تركناهم يصفرون لنا من خلفنا دون أن
نفسح لهم الطريق أو نسمح لهم بالمرور . وأظن أنه
بإمكانى القول أن قاربنا الصغير قد سبب أرباكا
وتعطىلا لتلك القوارب البخارية أكثر من أى شىء على
صفحة النهر .

فما أن يظهر أحد القوارب البخارية متجها ناحيتنا
حتى يصيح أحدها لرؤيته للعدو قادمة . وبسرعة يتخذ
كل منا مكانه ، فأمسك أنا بالدفة ويجلس هاريس وجورج
بجوارى وقد أعطينا ظهورنا للقارب البخارى ونترك
قاربنا ينساب بهدوء فوق صفحة النهر .

وعندما يقترب منا القارب البخارى يأخذ فى اصدار نفيه المزعج يحذرنا ، ولكننا نظل نساب على صفحة الماء بهدوء ، وبعد مائة ياردة أخذ يصفر ثانية وهذه المرة فى غضب شديد ، وهال ركابه على جوانبه وأخذوا يصيحون وينادون علينا وأبدا لم نكن ننصت "و نسمع لهم " فقد كان هاريس يحكى لنا احدى قصص أمه ، وتشد القصصة كل انتباهنا أنا وجورج وينملكنا الحرص على ألا تفوتنا منها كلمة واحدة .

ثم يطلق القارب البخارى نفيه الأخير البائس والذى يكاد يفجر ألتة ، ويستدير بعنف ليتفادانا فينحرف ويكاد يقفز على ضفة النهر فيندفع كل من على سطحه الى مقدمته وهم يصرخون ويصيحون والناس على ضفة النهر يأخذون فى الصراخ وينادون علينا ، حتى القوارب المارة تشترك فى هذا الصياح حتى يتحول النهر كله ولعدة أميال الى مظاهرة رهيبه .

ولهذا اضطر هاريس الى قطع استرساله فى القص عند أكثر المواقف تشويقا فى حكايته ناظرا اليها دهشة قائلا لجورج فى فزع :

– يا الهى ، انظر يا جورج .. قارب بخارى !

فيرد جورج بهدوء :

– حسن ، لقد تصورت انى سمعت شيئا بالفعل .

وانتايتنا حالة من الذعر والارتباك ، ولا نتمكن من
اخراج قاربنا عن الطريق فيتراحم ركاب القارب البخارى
ويصيحون علينا يوجهوننا فنسمع من يقول :

– اجذب مجدافك الايمن .. انت .. انت ايها
الغبى ، الى الخلف مجدافك الايسر ، لا .. لست انت
الآخر ، دع الدفة كما هى الا تفهم .. الآن كلكم معا .
لا ليس بهذه الطريقة اوه انك ... !

ثم ينزلون قاربا صغيرا من ركبهم ويسرعون
لانتقاذنا ، وبعد ربع ساعة من الجهد الشاق يتمكنون من
اخراجنا الى جانب الطريق ويواصلون بعد هذا سيرهم
فنشكرهم شكرا جزيلا ونرجوهم ان يجرونا معهم ولكنهم
كانوا يرفضون ذلك بعنف ..

:: سحر الليل :: ليلاس ::
www.liilas.com/vb3

الفصل الثانى عشر

سر اختفاء هاريس والبيخنى الأيرلندى

تناولنا غداثنا فى هذا اليوم على ضفاف النهر فى بلدة « وارجريف » .. وخلال هذا الغداء أصيبت أنا وجورج بصدمة عنيفة .. فى الواقع أن هاريس قد تلقى صدمة شديدة هو الآخر ولكنها لم تكن فى عنف الصدمة التى تلقيناها نحن ..

كنا نجلس فى حقل على مسافة حوالى عشرين خطوات من حافة النهر . وكنا قد جلسنا لقونا ، وكان هاريس يضع بين ركبتيه فطيرة شرائح اللحم ليقطعها ،

بينما كنا ننتظره أنا وجورج حاملين أطباقنا المتلهفة
لتقطيع الفطيرة .

وقال هاريس :

- أليست معكم شوكة هنا ؟ اننى أحتاج لشوكة
لتقطيع الفطيرة .

وكانت سلة الطعام خلفنا مباشرة فالتفتنا أنا
وجورج للخلف فى وقت واحد كى نخرج الشوكة منها .
ولم يستغرق هذا أكثر من خمس ثوان ، ولكننا عندما
استدركنا كان هاريس ومعه فطيرة اللحم قد اختفيا .

كان الحقل الذى نجلس فيه مفتوحا وواسعا ولا توجد
أية أشجار عالية أو حواجز - لمسافة - مئات الأمتار
- ولا يمكن أن يكون قد سقط فى النهر لأننا كنا نجلس
ناحية النهر ولكى يسقط فيه هاريس عليه أن يطير من
فوقنا أولا ..

دركنا ببصرنا فى كل مكان حولنا .. ثم حمل كل
منا كى وجه الآخر . وقلت لجورج متعجبا :

– أتكون الملائكة قد حملته للسماء . ١٩

فقال جورج :

– ان كانوا قد فعلوا فمن غير المعقول أن يأخذوا
منهم الفطيرة ايضا .

بدا هذا القول معقولا ، وكان علينا أن نبحث عن
تفسير آخر فقال جورج :

– اننى اعتقد أن الأرض قد ابتلعت

ثم اضاف بنبرة حزينة :

– ليتنا ماتركناه يقسم فطيرة اللحم . .

وبلهفة شديدة أدركنا بصرنا وتوجهنا به الى البقعة
التي كان يجلس عليها هاريس . . اه أخيرا ظهرت
الفطيرة ، هنا تجمد الدم فى عروقنا وانتصب شعر
رأسينا ، فقد رأينا رأس هاريس . . لاشيء منه سوى
رأسه وقد وقفت بين الحشائش الطويلة بوجه أحمر يتميز
غيظا .

أفاق جورج من الصدمة قبلى فصاح :

- تكلم ! قل لنا هل أنت حى أم ميت ؟ أين بقيتك ؟

فرد عليه رأس هاريس :

- أوه ، لا تكن سخيفا ! اننى أعرف أنكما قد فعلتما هذا عن عمد .

فاندھشنا أنا وجورج وصعنا فى صوت واحد :

- فعلنا ماذا ؟ !

ورد علينا الرأس فى ضيق :

- لماذا جعلتمانى أجلس فى هذه البقعة بالذات ؟
انها خدعة سخيفة . هيا امسكا الفطيرة !

كان هاريس قد جلس دون أن يعرف على حافة
ترعة صغيرة تخفيها الأعشاب والحشائش وبينما هو
ينحنى للخلف وقع فى الترعة أخذا معه الفطيرة .
وقد علق هاريس على ماحدث قائلا أنه لم يعاجأ

فى حياتـه مثـل تلك المفاجأة فقد أحس أنه يهوى تحت الأرض دون أن يعرف السبب وكان أول ما طرأ على ذهنه هو أن هذا هو يوم القيامة .

منحتنا الطبيعة رياحا لطيفة حملتنا بعيدا عن « وارجريف » و « شيبلاك » . وعلى ذكر « وارجريف » فإن هذه المدينة الصغيرة التى تقع عند منعطف النهر تظهر لعينيك كلوحة جميلة قديمة ، خاصة اذا كستها أشعة الشمس الناعسة ثوبا أحمر مذهباً . . صورة رائعة لاتنسى !

ومن « شيبلاك » الى « سوننج » كان النهر يحملنا خلال عدة جزر صغيرة . وكم كان هادئا وناعما ووحيدا . ان هذا الجزء من النهر ترتع فيه أحلام الأيام الخوالى وترى فيه أشكالا ووجوها مضت لحالها منذ زمن وأشياء كان يجب أن تكون ولكنها لم تكن !

تركنا القارب عند المرسى فى « سوننج » ونزلنا نتمشى فى جولة بالقرية . انها من أكثر البقاع سحرا على طول ضفاف النهر . . انها أشبه بقرية خيالية

بنيت كديكور على خشبة مسرح • فكل البيوت تغطيها
الورود التي كانت في هذا الوقت - في بدايات شهر
يوليو - متفتحة تسبح وسط سحب من الاشراق
والبهاء •

تجولنا في سويننج لمدة ساعة • ونظرا لأن الوقت
قد تأخر وأصبح لا يكفي للذهاب الى ريدينج فقد قررنا
أن نعود الى جزيرة « شيبلاك » لنمضي الليلة بها •

وعندما استقر بنا المقام وجدنا أن الوقت لا يزال
مبكرا على النوم • فقال جورج أنه مادام لدينا وقت
متوفر فانه ستكون فرصة رائعة لكي نصنع لأنفسنا
عشاء طيبا حقا • وقال أنه سيرينا ماذا يمكن أن يقدم
من طرق الطهي في رحلة على النهر • واقترح أن
يستخدم الخضراوات وبقايا اللحم البارد وفضلات
الطعام الأخرى لنصنع منها طبخة تسمى « اليخنسى
الايرلندي » •

بدا هذا الاقتراح فكرة طيبة • وعلى الفور بدأنا
الاعداد • فجمع جورج الحطب وأشعل النار • وتوليت

أنا وهاريس كحت قشر البطاطس . فى الحقيقة انه لم يخطر ببالي مطلقا ان عملية كحت وتقشير البطاطس ستكون بهذه الصعوبة . فقد بدأنا العمل بحيوية تلاشت بعد الانتهاء من أول حبة بطاطس . فكلما كنا نكحت كانت القشرة تزداد حتى لايتبقى من حبة البطاطس سوى قطعة صغيرة . . . وبرغم أننا لم نتوقف عن العمل المتواصل لمدة خمس وعشرين دقيقة ، فإننا لم ننته الا من تقشير أربع حبات فقط . . ثم رفضنا الاستمرار وقلنا سنستهلك بقية الليل فى ازالة قشر البطاطس من فوق ملابسنا ومن على أجسامنا . .

ولكن جورج قال أنه من السخافة أن نصنع اليخنى الأيرلندى بأربع حبات بطاطس فقط ، ولهذا فقد غسلنا نصف دسته أخرى وقطعناها ووضعناها فى اناء المطبخ دون أن نزيل قشرها . ثم وضعنا بصلة وبعض الفاصوليا وخلطهم جورج معا . ثم قال ان الاناء لايزال فارغا ، فبحثنا فى سلتى الطعام وأخرجنا كل البقايا والفضلات التى وجدناها وأضفناها الى اليخنى . . . ووجد جورج نصف علبة سمك فأفرغها فى الاناء أيضا . . !

وعقب جورج على هذا بقوله أنه من مزايا اليخنى
الاييرلندى أنه يمكنك من التخلص من فضلات كثيرة .
ثم أخرجت أنا بعض البيض المكسور وأضفته الى الاناء .
للحق أنا لا أذكر الآن ماذا وضعنا أيضا فى اناء
الطبخ ولكننا على أية حال لم نترك أى شىء يضيع
سدى ، حتى مونتمورينسى الذى كان يتبعنا باهتمام
اختفى قرب انتهاء الطبخ، وعاد يحمل فى قمه جرذين من
جرذان الماء وكأنه يقدمهما لنا كمشاركة منه فى صنع
اليخنى الايرلندى .

وجرت بيننا مناقشة حادة حول ما اذا كان من
الممكن اضافة الجرذان الى اليخنى أم لا . . قال هاريس
أنه يرى اضافتها ، وأن أى شىء سيخلط مع اليخنى
حتما سيضيف اليها مذاقا جديدا ، ولكن جورج رفض
بإصرار فهو لم يسمع قط عن يخنى ايرلندى صنع بجرذان
الماء . .

فقال له هاريس :

— انك ان لم تجرب أبدا الأشياء الجديدة فكيف

يمكنك الحكم عليها ؟ ان اناسا مثلك هم من يقفون في وجه تقدم البشرية .

ومع ذلك فقد كان اليخنى الايرلندى طبخة ناجحة تماما . فلم أذق في حياتى طعاما أشهى منه . كان به شىء ذو نكهة خاصة طازجة . كما أننا قد مللنا الأطباق المعتادة ، وما هو ذا طبق ذو طعم لا مثيل على وجه الأرض !

أتممنا عشاءنا بالشاي وفطيرة الفواكه . وبينما كنا نصنع الشاي ، قامت معركة بين مونتغورينسى وغلاية الشاي انتهت باصابات بالنسبة لمونتغورينسى .

طوال الرحلة ومونتغورينسى ينظر بفضول الى غلاية الشاي وقد اعتاد أن يجلس ويرقبها وهي تغلى بحيرة وارتيك . تم حاول أن يخيفها بأن أخذ ينبس عليها . وعندما كان البخار يتصاعد منها كان يحاول أن يهاجمها . ولكن دائما كان هناك من يتدخل فى اللحظة الأخيرة ويحمله بعيدا عن العدو ، قبل أن يهاجمه .

واليوم صمم مونتغورينسى على أن يقوم بالهجوم

فى الوقت المناسب وعند أول صوت صدر من الغلاية ،
نهض مزمجرا وتقدم فى اتجاهها بطريقة عدوانية .
وبالرغم من كونها غلاية صغيرة . إلا أنها كانت تمتلئ
شجاعة ، فبصقت فى وجه الكلب فزاد هياجه ونبح
نباحا شديدا وكأنه يقول لها :

— أه ، أتبصقين فى وجهى . سوف أعلمك أن
تكونى مهذبة مع كلب صعب المراس مثلى . ومحترم
مثلى . تعالى أيتها الشيطانة البائسة ذات الأنف
الطويل !!

ومع هذه الكلمات اندفع نحو الغلاية الصغيرة
المسكينة ودفعها بأنفه . ولم يكد يفعل هذا حتى أطلق
صرخة شقت صمت الليل . صرخة ألم ورعب . ثم اندفع
هاربا لا يلوى على شئ وأخذ يدور حول الجزيرة
ثلاث مرات . وفى كل مرة كان يقف فى محطات ليضع
أنفه فى الطمى الرطب .

ومنذ هذا اليوم ومونت مورينسى يرمق الغلاية
الصغيرة بنظرة هى مزيج من الخوف والريبة والكراهية

•• وما أن يراها حتى ينبج ويهرول هاربا واضعا ذيله بين رجليه • وفى اللحظة التى توضع فيها على الموقد يترك القارب كله ويجلس على الشاطئ حتى يتم اعداد الشاي •

بعد العشاء ، أخرج « جورج » آلة البانجو يريد أن يعزف عليها ولكن هاريس منعه وقال أنه يعاني من صداع ويشعر أنه لا يقوى على تحمل الضوضاء • بينما قال جورج أنه يعتقد أن الموسيقى ربما تخفف عنه الألم ، فالموسيقى تريح الأعصاب وتذهب بالصداع • وعزف ثلاث مقطوعات صغيرة ليثبت كلامه لهاريس •

ولكن هاريس قال أنه يفضل الصداع •• ولم يستطع جورج أن يتعلم العزف على البانجو الى الآن ، فقد قابل الكثير من التشبيط لهفته فى هذا المجال •• فقد حاول على مدى ليلتين أو ثلاث أن يمارس العزف ولو قليلا ، ولكن دون نجاح •• فقد كانت لهجة هاريس كافية لتحطيم طموح أى انسان ، كما أن مونتمورينسى كان لايفتا ينبج عند أية محاولة من جورج للعزف على

البانجو . وكان جورج يقذفه بفردة الحذاء وهو يتساعل
فى غضب :

- ماذا يقصد هذا الكلب بنباحه هكذا أثناء عزفى ؟
فيرد عليه هاريس وهو يدفع الحذاء بعيدا عن الكلب
بقوله :

- بل ماذا تقصد أنت من عزفك هذا أثناء نباحه ؟
دعه وشأنه . . ان أذنه موسيقية وعزفك يؤذيها !

لهذا قرر جورج التوقف عن تعارين البانجو حتى
يعود الى البيت . . لكنه لم يصادف حظا أسعد بعد
عودته للبيت ، فقد اعتادت السيدة « بوبيت » مديرة
المنزل أن تصعد الى حجرته لتقول له أنها فى غاية
الأسف فهى نفسها تود لو تسمعه ، ولكن السيدة التى
تسكن فوقنا سيدة مسكينة تعاني من سوء حالتها
الصحية ويخشى طبيبها أن يؤذيها عزف السيد جورج !

وحاول جورج أن يأخذ آلة البانجو معه فى أوقات
متأخرة من الليل ليعزف عليها فى الميدان . ولكن الجيران
اشتكوا للبوليس الذى كمن له ذات ليلة وألقى القبض

عليه . . وكانت القضية المرفوعة ضده في المحكمة واضحة تماما واضطر لتقديم تعهد بالحفاظ على الهدوء لمدة ستة أشهر والا تعرض لعقوبة السجن !

وقد سيطر عليه الحزن الشديد طوال هذه الشهور الستة وحاول أن يبذل بعض الجهود للعزف على آلة البانجو مرة أو مرتين بعد انتهائها ، ولكنه كان دائما يقابل بنفس الفتور ونفس التجاهل من المحيطين به أخيرا استسلم وقرر أن يعرض آلة البانجو للبيع بسعر بخس ، وبدأ يتعلم لعب الورق بدلا من العزف . .

ان محاولة تعلم العزف على آلة موسيقية تعتبر في وقتنا من الأعمال المحبطة . . انكم قد تتصورون أن الناس ستساعد الهاوي ليتمكن من فنه . ولكن هذا لا يحدث . .

اننى أعرف شابا حاول تعلم العزف على آلة موسيقى القرب . وسوف تندهشون اذا علمتم مدى المقاومة التي لاقاها في سبيل ذلك . فهو حتى لم يتلق أدنى تشجيع من أفراد عائلته أنفسهم ، بل ان أباه كان يقف ضده

بقوة منذ اللحظة الأولى وكان يعلن رأيه فى كل وقت .

وكان صديقى معتادا أن يصحو مبكرا ليتمرن ، ولكنه أجبر على أن يقلع عن تلك العادة بعد أن نهشته أخته والتي كانت تعتبر من المقرمعات دينيا . وقالت له انه لأمر فظيع أن يبدأ الانسان يومه بمثل هذا العمل .

وبدأ صديقى يتمرن على العزف فى وقت متأخر من الليل بعد أن يأوى كل أفراد العائلة الى مخادعهم . ولكنه لم يستطع أن يواصل هذا أيضا . . فقد تسبب عزفه فى اكساب بيتهم سمعة سيئة . فالمارة العائدون لمنازلهم فى أوقات متأخرة من الليل كانوا يتوقفون أمام البيت وينصتون . . وفى الصباح ينشرون أخبار قصة جريمة القتل التى وقعت فى منزل السيد جيفرسون ، وكيف أنهم استمعوا طوال الليل لصرخات القتل وصياح المقاتل وصرخات الاستغاثة من بقية سكان المنزل وفى النهاية كانوا يسمعون حشرجة أنفاس القتل وهو يموت .

بعد هذا تركوه يتمرن فى المطبخ ، فى مؤخرة

البيت بينما تكون كل أبواب المنزل مغلقة بالمزاليج ، ولكن
أصوات عزفه كانت تصل الى حجرة المعيشة وتسمع
بوضوح ، وكانت تتسبب أحيانا في بكاء أمه .

أخيرا بنوا له مخبأ تحت الأرض في الحديقة على
بعد نصف ميل من المنزل وتركوه يأخذ آله ويذهب الى
هناك كلما أراد أن يتمرن على العزف . . وكان يأتيهم
زائر قد لا يعلم بأمر هذا المخبأ ، وقد ينسون أخباره
به ، فيخرج ليتجول حول المنزل ويفاجأ بصوت موسيقى
القرب ينبعث من مكان مجهول ودون سابق انذار . .
فاذا كان رجلا قويا فانه قد يفيق من الصدمة بعد وقت
قصير ، أما اذا كان انسانا عاديا فانه قد يصاب
بالجنون !

الفصل الثالث عشر

هاريس وحيدا في القارب

أحس هاريس - بعد عشاء هذه الليلة - ببعض الضيق * وأعتقد أن اليخني كان السبب * * ولهذا تركناه - أنا وجورج - في القارب واتفقنا على أن نتجول قليلا في (هنلى) * * بينما يبقى هاريس في انتظارنا * وقد قرر هاريس أن يجلس ليتناول كأسا من الوسيكى ، ثم يصلح بعض الأشياء خلال الأمسية *

وقد اتفقنا معه على أن ننادى عليه عند عودتنا ليجدنا بالقارب الى ناحيتنا ويلتقنا * * وأكدنا عليه ألا ينام فوعدنا بالألا يفعل *

كانت مدينة « هنلى » تستعد لسباق القوارب وكانت مزدحمة بالبشر . وقد قابلنا عددا كبيرا من معارفنا فى المدينة ، قضينا معهم بعض الوقت . . . وقد مر الزمن فى صحبتهم ممتعا وسريعا حتى أن الساعة كانت قد بلغت الحادية عشرة عندما بدأنا نشق طريق العودة الى بيتنا ، أقصد قاربنا الصغير الذى تعودنا أن نسميه بيتنا منذ بدأت هذه الرحلة . وكانت المسافة بيننا وبين بيتنا تبلغ نحو أربعة أميال طولا . .

كانت ليلة قارسة البرد موحشة ، تتقاطر فيها خيوط من المطر الخفيف . وكنا نسير فى الحقول المظلمة الصامتة نتحدث بصوت خفيض ونتساءل ان كنا حقا نسير على الطريق الصحيح . . . لكننا نحلم بالقارب المريح والضوء اللامع المتبعث من خلال الشراع المشدود . وقدور فى رؤوسنا الأفكار عن هاريس ومونتمورينسى والويسكى . وتمنينا لو أننا معهم جميعا الآن .

تخيلنا أنفسنا فى القارب متعبين جائعين نجلس الى طعام العشاء ونأكل اللحم البارد وتناول بعضا من

قطع الخبز .. ونسمع بأذاننا صوت السكاكين والشوك
المرح وهي تجرى على قطع اللحم تقطعها . وصوت
ضحكاتنا يملأ المكان ويهتك ستر الليل .. حلمنا بكل
هذا فأسرعنا نغذ السير على الطريق .

أخيرا اهتدينا الى الطريق الصحيح فاطمأن قلبانا
واسترحنا من حيرتنا ، فلم نكن حتى هذه اللحظة ندرى
أنسير فى اتجاه النهر أم نسير مبتعدين عنه .. وكم
تكون هذه الحيرة مؤلمة عندما يكون الانسان متعبا
جائعا يتوق الى النوم .. بعدنا الآن عن المدينة وقد
بلغت الساعة الثانية عشرة الا الربع وهنا قال جورج
بقلق :

— الا تذكر أية جزيرة كانت ؟ هل تذكر ؟ !

فأجبتة وقد بدأ القلق يساورنى بدورى :

— لا .. لا أنكر .. كم كان عدد هذه الجزر ؟ !

— أربع فقط . على أية حال سيكون كل شىء

على مايرام .. ان كان هاريس متيقظا ..

وما أن وصلنا الى الجزيرة الاولى ، حتى أخذنا
ننادى بصوت عال • ولكن مامن مجيب • فتوجهنا
الى الجزيرة الثانية وفي مواجهتها كررنا المحاولة •
وحصلنا على نفس النتيجة •

ثم قال جورج فرحا :

— أوه ، لقد تذكرت • • لقد كانت الجزيرة الثالثة !
فعدونا والأمل يحدونا في اتجاه الجزيرة الثالثة •
ولكننا عندما وصلناها وناديننا على هاريس لم نسمع
الا صوتينا •

كان الموقف قد صار خطيرا فقد جاوز الوقت منتصف
الليل والفنادق في كل من « شيبلاك » و« هنلى » ستكون
ممتلئة ، ولا يمكننا أن ندور على أصحاب الأكواخ
وحراس المنازل نستجديهم حجرة نبيت فيها •

اقترح جورج أن نعود أدراجنا الى مدينة « هنلى »
ونضرب شرطيا عساهم يحتجزوننا في قسم الشرطة
فنبيت ليلتنا في دفاء التخشيبية • ولكن ماذا لو أن

الشرطى رد علينا فضربنا كما ضربناه ولم يحبسنا
بالقسم . كما أننا بالطبع لا يمكننا أن نقضى الليل نتعارك
مع رجال الشرطة ، وقد يحدث ما لا نريده فنضرب
الشرطى أكثر من اللازم وننال حكما بالسجن ستة
أشهر .

وفى يأس عاودنا المحاولة عند الجزيرة الرابعة .
وكانت تبدو غارقة فى الظلام . . . ولكننا لم نجن شيئا
أفضل مما جئنا من قبل !

وبدا المطر ينهمر بغزارة عاقدا عزمه - على ما يبدو
- على الاستمرار بهذه الصورة وغرقنا نحن فى الماء
. . . وفى حيرتنا . . . ترى هل كان عدد الجزر أربعا فقط ؟
. . . ترى هل اقتربنا حقا من الجزر أم ترانا هازلنا على
بعد ميل منها ؟ . . . ووصل بنا الأمر الى أن ظننا أننا
على الجانب الآخر من النهر . . . كان كل شيء حولنا
غريبا وموحشا وغارقا فى الظلام !

وفى اللحظة التى فقدنا فيها كل أمل فى النجاة ،
التقطت عيناي شعاعا من ضوء شاحب يتراقص بين

الأشجار منبعثا من الضيقة المقابلة ، فى البداية ظننته
من صنع الأشباح ، ولكنى فى اللحظة التالية اكتشفت
أنه قاربنا ، فأطلقت صـيحة جعلت الليل يهتز فى
فراشه !

وحبسنا أنفاسنا فى انتظار الرد .. ثم وبعد دقيقة
.. أو .. يا الهى ، يالها من موسيقى تنبعث من طيات
الظلام ! .. هاهو صوت مونتمورينسى يرد على ندائنا
.. وصحنا ثانية بصوت كان كافيا لايقاظ الموتى تحت
الثرى ، وبعد أن انتظرنا فترة أخرى خلناها ساعة
كاملة وهى لم تتعد فى الحقيقة خمس دقائق ، رأينا
القارب المضى يزحف ببطء فى الظلام وسمعنا صوت
هاريس يسألنا ناعسا : « أين كنا ! » .

كان هناك شيء ما غريب يبدو على هاريس .. شيء
أكثر من الارهاق . فبدلا من أن يجذف الى ناحيتنا أخذ
القارب الى مكان يستحيل علينا أن نبلغه ثم راح فى
النوم . واستدعى الأمر كما هائلا من الصراخ
والصياح لايقاظه وبث بعض الاحساس فى عقله .
وأخيرا نجحنا وصرنا على ظهر القارب !



وأخيرا عثرنا على الممر الصحيح !

عندما وصلنا القارب لاحظنا أن علامات الحزن
ترسم على وجه هاريس . كان شكله يعطيك انطباعا
لرجل واجه الكثير من المتاعب ، فسألناه ان كان قد
حدث له أى شيء أثناء غيابنا فأجاب بقوله :

– الأوز !!

هكذا قال « الأوز ! » فقد كان يبدو أننا رسونا
بالقارب عند عش للأوز البرى ، وكانت أنثى الأوز قد
عادت الى عشها – بعد مغادرتى أنا وجورج للقارب –
وانتابها غضب شديد لرؤية قاربنا يرسو بالقرب من
عشها . ويبدو أنها أظهرت هذا الغضب بطريقة ضايقت
هاريس فطردها بعيدا . ولكنها عادت ثانية وقد
أحضرت ذكرها . . وقال هاريس أنه قد دخل معركة
حقيقية مع هذين الطائرين . . وفى النهاية انتصرت
الشجاعة والحكمة وانسحب الطائران منهزمين !

ولكنهما سرعان ما عادا ثانية وقد أصبح عددهم
ثمانية عشر طائرا هذه المرة ، ولا بد أنها كانت معركة
رهيبة – بصرف النظر عن أن احصاء هاريس لعدد

الأوز لم يكن دقيقا بل كان مشوشا - فقد حاولت طيور
الأوز أن تسحبه هو ومونت مورينسى خارج القارب
لتفرقهما . ولكن هاريس دافع عن نفسه دفاع الأبطال
على مدى أربع ساعات . واستطاع أن يهزمهم جميعا
ورأى فلولهم وهى تفر هاربة وجراحها تنزف حتى
الموت .

سال جورج هاريس قائلا :

- كم كان عدد الأوز فى تلك المعركة ؟

فأجابه هاريس وهو يغالب النعاس :

- كان عددها اثنتين وثلاثين أوزة . .

- ولكنك قلت لتوك أنهم كانوا ثمانى عشرة أوزة

فقط .

- لا . . انا لم أقل هذا ، بل قلت اثنى عشر طائرا

هل تعتقد أنى لا أحسن العد .

وهكذا لم يقدر لنا أن نعرف أبدا حقيقة عدد الأوز

البرى فى تلك المعركة التاريخية • فعندما أصبح الصباح
وسألنا هاريس ثانية عن عدد الأوز ، أجاب بدهشة
قائلا :

— أى أوز ؟!

وبدا عليه أنه اعتقد أنى وجورج كنا نحلم أو نهذى !
كم كان جميلا أن نعود الى بيتنا — قاربنا — بعد
كل مخاوف تلك الليلة • وما ان استقربنا المقام فى
القارب حتى بدأنا فى تناول عشاء شهى • وأردنا — أنا
وجورج — أن نتناول كأسين من الويسكى لكننا لم نجد
قطرة واحدة منه ، فسالنا هاريس عما فعله بالويسكى ،
لكنه لم يبد أدنى اشارة عما تبين أنه قد فهم ماذا نعنى
بقولنا « ويسكى » • • • ولكن مونتمورينسى بدا عليه أنه
قد فهم وأنه يعرف شيئا ما ولكنه لم يفصح عنه •

نمت نوما عميقا فى تلك الليلة ، وكان من الممكن
أن أنعم بنوم أفضل لولا هاريس • فقد استيقظت بعد أن
شعرت به للمرة العاشرة يفتش القارب كله بمصباح
يحملة بحثا عن ملابسه • • • أوه كم كان يبدو قلقا بشأن

ملايسه طوال الليل . . وقد دفعنى من مرقدى ودفع
جورج أيضا ليرى ان كنا نرقد فوق سرواله ! وعندما
فعلها ثانية ثار فيه جورج وقال له بحدة :

— لماذا بحق السماء تريد سروالك الآن فى منتصف
الليل ؟ لماذا لا ترقد وتنام وتدعنا ننام ؟ !

أما أنا فقد شعرت أن هاريس يواجه مشكلة حقيقية
وفى المرة التالية صحت لأنه لم يستطع العثور على
جوريه . وآخر ما تحتفظ به ذاكرتى المشوشة عن تلك
الليلة هو أننى كنت اتقلب على جنبى عندما سمعت
هاريس يهتم بشيء ما عن اختفاء مظلاته بطريقة غير
عادية !

استيقظنا فى الصباح التالى فى وقت متأخر ،
وتناولنا افطارا بسيطا ونظفنا القارب ، ووضعنا كل
شيء فى مكانه . وفى حوالى العاشرة أطلقنا سراح
القارب عازمين على الاستمتاع بيوم جميل من أيام
رحلتنا .

فى البداية قال هاريس أنه يرى من الأفضل أن أقوم

أنا وجورج بالتجديف بينما يمسك هو بالدفة .. أوه !
كان حقيقا بهاريس - أن هو تحرى العدل - أن يأخذ
هو وجورج المجدافين ويدعا لى الدفة لاستريح قليلا .
فقد كان من الواضح لى أننى أقوم بأكثر من نصيبى من
العمل طوال هذه الرحلة وقد بدأت الضايق حقيقة بسبب
هذا الأمر ..

أننى دائما أقوم بقدر من العمل أكثر مما يجب
على القيام به .. ولم يكن العمل فى حد ذاته هو ما
اعترض عليه ، فأنا يمكننى أن أقوم بعمل شاق أربع
ساعات متواصلة . ولا أعتقد أن هناك قدرا من العمل
يرهقنى بالاضافة الى أننى دائم الاعتزاز والفخر بما
أقوم به .

ولكن وبالرغم من ولعى بالعمل ، فإننى أحب العدل
أيضا . أننى لا أطلب أكثر من نصيبى ، ولكنى دائما
أحصل على أكثر منه فى العمل - هذا على الأقل ما يبدو
لى - وهذا ما يقلقنى .. ولكن جورج قال انه لا يجد
أى مبرر لقلقى وضيقى بخصوص هذا الموضوع ، فهو

يعتقد أن خيالي هو الذي يجعلني أتصور أنني أقوم
بأكثر من نصيبي في العمل بينما أنا - في رأيه - لا أقوم
حتى بنصف ما يجب على القيام به !

لقد لاحظت - في هذا القارب - أن كل فرد يعتقد
أنه يقوم بكل العمل وحده . فهاريس يتصور أنه وحده
الذي يعمل . بينما أنا وجورج في غاية الكسل .
ولكن جورج ضحك من فكرة أن هاريس قد قام بأي عمل
سوى الأكل والنوم ، فقد كان يعتقد أنه - أي جورج -
قد قام بكل الأعمال التي يمكن ذكرها . وأضاف أنه لم
ير أناسا أكثر كسلا مني ومن هاريس . وقد أضحك هذا
هاريس وأثار سخريته فقال ضاحكا :

- يا للظرف ، ان جورج يتكلم عن العمل ! ان نصف
ساعة من العمل لتقتله .

ثم توجه بالكلام الى قائلا :

- هل رأيتہ أبدا يقوم بأي عمل ؟
وقد أمنت على كلام هاريس بأنني بالتأكيد لم أر
جورج يقوم بأدنى عمل طوال الرحلة .

ولكن جورج رد على هاريس بقوله :

- حسن ، انتى لا أفهم كيف يمكنك أن تحكم على
عملى وأنت تقضى أكثر من نصف الوقت نائما .

ثم توجه بكلامه الى قائلا :

- أرايت هاريس يقظا فى غير أوقات الطعام ؟

ودفعنى حب الحقيقة الى أن أؤيد جورج فيما
ذهب إليه فقد كان هاريس يقدم القليل من العون طوال
هذه الرحلة .

فقال هاريس :

- حسن ، انتى على أية حال قد قمت بعمل أكثر
مما قام به « جيروم » .

وأضاف جورج :

- لم يكن فى استطاعتك أن تقوم بأقل مما قام به .
أن « جيروم » يعتقد أنه مسافر على ظهر قاربنا وليس
واحدا منا .

كان هذا هو الشكر الذي قدمناه لى على احضارهما
وقاربهما الشمس عبر طول النهر من كنجستون الى هنا ،
كان هذا هو شكرهما على ادارة كل شيء من اجلهما
والعناية بهما والعمل بجد كالتنى عبد لديهما .

اه ٠٠ ماذا اقول ؟ هذا هو العالم الذى نعيش فيه !!

:: سحر الليل :: ليلاس ::
www.liilas.com/vb3

الفصل الرابع عشر

رياضة التجديف

اتفقنا - بعد جدال - على أن يجدف هاريس وجورج حتى « ريدينج » . وادفع أنا القارب من هناك . أن التجديف بقارب ثقيل ضد تيار قوى أصبح من الأشياء غير الجذابة بالنسبة لى فى الوقت الحاضر . فقد مضى وقت طويل على الزمن الذى كنت أتحمل فيه بعض الصعاب . اننى الآن أفضل أن أعطى الفرصة للشباب الأصغر سنا لي تجربوا ويكتسبوا الخبرة بدورهم .

وقد لاحظت أن كل ذوى الخبرة - مثلى - يظهرون نفس القدر من التواضع والزهد فى الأعمال الصعبة أو

عندما يتعلق الأمر بالتجديف الشاق على صفحة النهر .
فمن الممكن دائما أن ترى رجلا خبيرا مضطجعا على
وسادة في قاع القارب وهو يشجع الشباب الذين
يقومون - فعلا - بالتجديف بأن يحكى لهم القصص
والحكايات عن أعماله المجيدة التي قام بها في العام
الماضي .

فنجده يقول للشباب المتصبيين عرقا من شدة الجهد
الذي بذلوه في التجديف :

- هل تسميان ماتقومان به الآن عملا شاقا ؟ ! اننى
و « جيم بيفلزجاك » جدفتنا ذات مرة من « مارلو » الى
« جورينج » خلال عصر يوم واحد - فى العام الماضى -
ولم نتوقف ولا مرة واحدة . الا تذكر يا جاك ؟

ويتذكر جاك - الذى كان يرقد هناك فوق كل الأغشية
التي تيسر له جمعها قاضيا الساعتين الماضيتين نائما -
يتذكر وقد أيقظه السؤال الأخير أنه كانت تواجههم رياح
قوية غير معتادة طوال الطريق . بينما يضيف المتحدث
الأول - وهو يتناول وسادة أخرى ليضعها تحت رأسه :

– انى اعتقد أن المسافة كانت حوالى أربعة وثلاثين
ميلا !!

ولكن جاك يهمهم قائلا :

– لا .. لا تمط المسافة هكذا يا توم ، فقد كانت
ثلاثة وثلاثين ميلا على الأكثر !!

ويدرك الارهاق « جاك » وتوم من جراء ما بذلاه
من جهد فى الكلام فيغلبهما النعاس وينامان بينما يشعر
الشابان بالزهو والفخر لأنهما يجدفان بقارب يحمل
بطلين مثل جاك وتوم فيجدفان بحماس أشد من ذى
قبل .

عندما كنت صغيرا ، كنت أستمع لمثل هذه الحكايات
وأصدق كل كلمة فيها . ولكن يبدو أن شباب هذه الأيام
ليسوا على نفس القدر من البراعة والسذاجة الذى
كنا عليه نحن فى شبابنا .

ذات مرة أخذنا – جورج وهاريس وأنا – أحد
الشباب معنا فى نزهة نهريية . وقصصنا على سمعه

كل هذه القصص المعتادة ، بل وأضفنا سبع قصص أخرى من ابتكارنا . أحداها يمكن لأي طفل صغير أن يصدقها بسهولة . ولكن بالرغم من ذلك كان هذا الشاب يضحك ساخرا منا ويطالبنا من وقت لآخر أن نعيد على سمعه حكايات أعمالنا المدهشة وكأنه يطرب لسماعها .

في هذا الصباح كنا نتجاذب أطراف الحديث حول خبراتنا السابقة ونحكي الحكايات عن أولى خطواتنا على درب فن التجديف .

وكانت أولى ذكرياتي عن هذا الموضوع يوم أن كنا خمسة أصدقاء دفع كل منا ثلاثة بنسات واستأجرنا قاربا بنى بطريقة غريبة . وجدفنا به على صفحة بحيرة (ريجينت بارك) وانتهى بنا الأمر الى أن جففنا ملابسنا وأجسامنا في كوخ حارس الحديقة .

وبعد هذا ، تدربت جيدا على الطفو بطوف خشبي في البحيرات الصناعية . حيث تعلمنا هذه التجربة باثارة أكثر مما يتخيل المرء ، خاصة عندما تكون في وسط البحيرة ويفاجئك صاحب الأخشاب والمواد التي

صنعت بها الطوف ويقف على الضفة ممسكا في يده
بعضا غليظة !

ان اول ماتحس به عند رؤيتك لهذا الرجل النحيل
هو أنك لا تجد في نفسك أية رغبة في لقاء أى انسان أو
ادنى ميل للمجادلة . وينتابك شعور أنه لو كان بإمكانك
أن تتسلل الى الضفة الأخرى وتعود للبيت بسرعة
وهدوء دون أن يراك هذا الرجل النحيل ودون أن تبدو
جلفا لتجنبك ايام . لفعلت هذا دون تردد ودون أن
تلتفت اليه . .

ولكن الرجل يبدو ملهوقا على أن يلقاك ويمسك
بتلابيبك ويتكلم معك !

وربما كان الرجل قريبا لوالدك ويعرف عنك الكثير
ولكن هذا لا يدفعك لأن تذهب اليه . وسيقول لك انه
سيعلمك كيف تأخذ ألواح الخشبية وتصنع منها طوفا
تركبه على صفحة الماء . ولكنك منذ أن عرفت كيف
تصنع هذا بنفسك ، فانك ترفض هذا العرض غير
الضرورى بالنسبة لك ، ولن تجد في نفسك الرغبة في

أن تسبب لهذا الرجل المذهب أية متاعب ان انت قبلت
هذا العرض . . وبالطبع هو يقصد فى الحقيقة أنه
سيعلمك - بطريقته - ألا تجرؤ ثانية على أخذ الواحه
لتصنع منها طوفا . .

على أية حال فان رغبته فى مقابلتك واضحة ،
والحيوية والعزيمة التى يجرى بها هنا وهناك لايتسنى
له أن يكون موجودا عند البقعة التى ستنزل عندها
بالطوف ، تثير فيك العزة والفخر حقا .

فان كان سميئا وأنفاسه مقطوعة فسيمكنك أن
تجنبه بسهولة ، ولكن عندما يكون شابا ونفسه طويلا
فستجد نفسك مضطرا لمقابلته . . على أية حال ستكون
المقابلة قصيرة جدا ومعظم الحديث سيكون من جانبه
هو وفى اللحظة التى سيمكنك فيها أن تفر منه فستفعل
دون توان .

قضيت ثلاثة أشهر فى التدريب على استخدام
الطوف حتى اكتسبت من المهارة كل مايمكن اكتسابه
فى هذا الفن فقررت أن أجرب التجديف الفعلى ،
فالتحقت بأحد اندية التجديف . .

وعلى صفحة نهر « لى » خصوصا فى أيام السبت
عندما يكون مزدحما بالقوارب ، سرعان ماتت تعلم كيف
تتعامل مع القارب وكيف تغلت من الاصطدام بالقوارب
الأكبر وتتفادى الغرق .

أما جورج فانه لم يقترب من الماء حتى بلغ السادسة
عشرة من عمره . بعدها ذهب هو وثمانية من أصدقائه
فى نفس عمره تقريبا الى بلدة « كيو » فى أحد أيام
السبت ليستأجروا قاربا من هناك ويجدوا به الى
« ريتشموند » ثم يعودون . . كان أحدهم ويدعى
« جوسكين » قد استقل قاربا مرة أو مرتين قبل ذلك فوق
بحيرة « سيرينتاين » فى حديقة « هايد بارك » . .
وجوسكين هذا هو الذى أقنعهم بأن ركوب قوارب
التجديف متعة عظيمة .

كان تيار الماء شديدا عندما وصلوا الى المرسى ،
وكانت هناك رياح عاتية تصفر فوق النهر ، ولكن هذا
لم يمنعهم من الذهاب واختيار قاربهم . .

كان بالقرب منهم قارب سباق ذو ثمانية أزواج من

المجاديف قانجذبوا اليه . وكان صاحب القوارب غائبا
وكان صبية هو الذى يتولى المسئولية ، وحاول الصبى
اثناءهم عن أخذ قارب السباق وعرض عليهم عدة
قوارب أخرى واسعة وعائلية ومريحة ولكنها كلها لم
تعجبهم وزاد اصرارهم على أخذ قارب السباق . .

ومن ثم جهزه لهم الصبى وخلعوا معاطفهم استعدادا لأن
يأخذوا أماكنهم فى القارب . ثم جلسوا فى أماكنهم .
وجاء ترتيب جورج على المجداف الرابع . بينما اختار
صبى عصبى المزاج أن يعسك بالدفة ، فشرح له جوسكين
قواعد القيادة وتوجيه الدفة . أما جوسكين نفسه فكان
رقم واحد فى الترتيب ليقود بقية المجموعة . وأخذ
جوسكين يطمئن الآخرين ويفهمهم أن الأمر غاية فى
البساطة ، وكل ما عليهم هو أن يراقبوه ويفعلوا مثلما
يقول . وبعد دقائق صاح الجميع يعلنون استعدادهم
فدفعهم صبى المرسى دفعة قوية .

لم يتمكن جورج من وصف ما حدث بعد هذا بدقة ،
فهو فقط يذكر أنه - وبمجرد البداية - قد تلقى ضربة

عنيقة في ظهره من مجداف رقم ٥ فانزلق مقعده من تحته واختفى اختفاء سحريا ووجد نفسه فجأة جالسا على سطح القارب ، وقد لاحظ أن رقم ٢ كان ملقى على ظهره في قاع القارب ورجلاه معلقتان في الهواء !

وأخذ القارب يبتعد عن الشاطئء بسرعة ثمانية أميال في الساعة . ومروا من تحت كوبرى « كيو » وكان جوسكن هو الوحيد الذى يجدف بالفعل . وعندما حاول جورج - بعد أن استعاد مقعده - أن يساعد ، دفع المجداف في النهر ليضرب به الماء اختفى المجداف في الحال تحت القارب وكاد يأخذ جورج معه . وفي نفس الوقت ألقي الولد العصبي حبله الدفة في الماء وانفجر باكيا !

لم يعرف جورج - أبدا - كيف استطاعوا العودة ولكنه يذكر أن الأمر قد استغرق أربعين دقيقة كاملة . ويذكر أنه كان هناك زحام من البشر وقفوا يشاهدونهم - وكانهم يشاهدون عرضا في السيرك - من فوق الكوبرى ، وكان كل واحد من المشاهدين يصيح موجهها

لهم نصيحة مختلفة . ولثلاث مرات كانوا يعبرون من تحت الكوبرى ولثلاث مرات كانوا ينجرقون تحت أقواسه ثانية . وكان الولد العصبى كلما رفع بصره ووجد الكوبرى فوق رأسه يتفجر باكيا . وبعد هذه الحادثة قال جورج أنه لم يعد يتخيل مطلقا منذ هذا اليوم أنه قد يستمتع بركوب القوارب فى يوم من الأيام .

أما هارى فكان أكثر تعودا على التجديف فى البحر . . وكان يفضل التجديف فى البحر أكثر من التجديف فى النهر كنوع من أنواع الرياضة . ولكننى لا أوافق على هذا رأى . فانا اذكر يوما أخذت فيه قاربا صغيرا عند شاطئ مدينة «ايسنبورن» فى الصيف الماضى . . كنت قد اعتدت على التجديف الجيد فى البحر منذ عدة سنوات ، وتصورت أننى سأقوم به خير قيام . لكننى اكتشفت أنى قد نسيت كل مايتعلق بهذا الفن فبينما كان أحد المجدافين يغوص عميقا فى الماء كان الآخر يطير منى فى الهواء ولكى أمسك بالمجدافين بأحكام وأضعهما فى الماء معا كان على أن أجدف واقفا . وكان البحر مزدهما بالناس وكان على أن أجدف عابرا

اياهم بهذه الطريقة السخيفة • فرسوت عند منتصف الطريق على الشاطئ واستأجرت مراكبيا عجوز ليحذف بي عائدا •

اننى أحب أن أرقب المراكبي العجوز وهو يحذف خاصة عندما يكون مستأجرا بالساعة ، فهناك شيء ما هادئ ومريح فى طريقته ، انه لا يحب أن يتعارك أو يناور ليمر من القوارب التى تقابله • وان مر قارب آخر بجواره وسبقه فانه لا ينزعج مطلقا • فى الحقيقة • هو يتركهم جميعا يمرون منه ويسبقونه • بل انه يدفع كل من يمر بنفس طريقه يسبقه دون أن يبالي بذلك •

ان هذا قد يسبب بعض المتاعب أو الضيق لبعض الناس • ولكنى أرى أن هذا التواضع الهادئ الذى يظهره هؤلاء المراكبيون المستأجرون فى مثل هذه المواقف يعلمنا دروسا رائعة فى الرضا والحد من الطموح •

يقول جورج أنه يفضل نوع القوارب الطويلة ذات القضيب الطويل الذى يدفع فى الماء حتى يصل الى

القاع فيدفع القارب للأمام ، وهو يحب أن يجربه كنوع من التغيير ، بدلا من المجاديف العادية ولكن هذه الطريقة ليست سهلة كما قد يبدو من الوهلة الأولى ، فهي تحتاج لتدريب طويل قبل أن يمكنك أن تؤديها بمهارة .

فانا أعرف شابا تعرض لحادث اليم عندما خرج لأول مرة في قارب من هذا النوع فبعد أن تدرب عليها حتى ظن أنه قد عرف عنها كل شيء ، أخذ أحد القوارب ونزل به الى النهر ، وكان يجري في القارب من الأمام الى الخلف ومن الخلف الى الأمام مستعملا مجدافه المطويل دون حذر أو حرص وكأته أحد الخبراء في هذا العمل .

وكان من الممكن أن يستمر الحال على ما هو عليه لولا انه - وبينما كان ينظر حوله ليتمتع بمناظر النهر خطا خطوة أكثر من اللازم - فكانت خطوة في الفضاء خارج القارب وانغرس المجداف في الطين ، وظل هو معلقا عليه بينما جرف التيار القارب بعيدا . كم كان يستحق هذا الوضع بالفعل . وعلى الضفة الأخرى

صاح صبي جلف ينادي على صديق له كي يأتي ويشاهد
هذا القرد المعلق على عصا في وسط الماء . .

ولم استطع أن أعاونه ، لأننا ولسوء حظه لم نكن
نحمل مجدافا احتياطيا . وكل ما استطعت أن أفعله
هو أن أجلس وأنظر إليه . ولن أنسى ماحييت التعبير
الذي ارتسم على وجهه عندما كان المجداف يقوص به
في الماء .

رأيتة وهو يفرق ببطء ، ورأيتة وهو يصارع من أجل
الخروج بينما ملابسه كلها قد ابتلت . ولم أستطع أن
أمنع نفسي من الضحك على مظهره الأحمق . واستمر
ضحكى عليه لبعض الوقت ثم أحسست فجأة أن الأمر
لا يستحق منى كل هذا الضحك فهانذا وحيد فوق القارب
بلا مجداف ، يحملنى التيار ولا حول لى ولا قوة فى وسط
اليم .

وانتابنى شعور عارم بالغضب لأن صديقى الأرعن
قد أضاع المجداف برعونته وجريه خارج القارب بتلك

الطريقة • ألم يكن عليه - على الأقل - أن يترك لى
المجداف •

حملنى التيار لمسافة ربع ميل حتى أصبحت على
مرأى من قارب صديق كانلقى بمرساته وسط النهر
وعلى ظهره صيادان كبير السن • وعندما وقع بصرهما
على وانا اقترب مندفعاً بقوة التيار منهما صرخا يطالبانى
بالابتعاد عن طريقهما ولكنى صحت قائلاً :

- لاحيلة لى !

فقالا :

- ولكن لما لا تحاول ؟ !

فأوضحت لهما الأمر عندما اقتربت منهما أكثر ،
فأمسكا بقاربى وأقرضانى مجدافا • أه ، لقد كان هناك
مصعب خلفهما بقليل ، لهذا فقد سعدت كثيراً بوجودهما
فى هذا المكان •

فى أول مرة خرجت فيها بقارب من ذاك النوع ذى
المجداف الطويل ، كنت فى صحبة ثلاثة رجال آخرين

كانوا همى ليعلمونى كيفية التجديف بهذه الطريقة . ولما لم يتيسر لنا الخروج معا فى نفس الوقت قررت أن أسبقهم الى النهر وأنتظرهم حتى يجيئوا . وعندما وصلت الى شاطئ النهر قررت أن أنزل النهر بالقرب وأجرب التجديف حتى يجيئوا .

لكننى لم أستطع الحصول على قارب من هذا النوع عصر ذاك اليوم حيث كانت القوارب كلها قد أجرت . لهذا لم يكن لدى ما افعله سوى الجلوس على الضفة انظر الى النهر وأنتظر الأصدقاء .

ولم يمض على وقت طويل وأنا على هذه الحال حتى شد انتباهى منظر رجل فى قارب طويل بمجداف من النوع الذى يدفع فى الماء حتى يقابل القاع . ولاحظت - عندهشاً - انه كان يرتدى سترة وكابا يشبهان تماما ماكنت ارتديه . وكان كما بدا لى مبتدئاً فى هذا المجال فطريقته فى الأداء كانت رديئة جداً . . . أوه ، لا يمكنكم ان تتصوروا ماذا كان يحدث عندما كان يضع مجدافه فى الماء . . . انه هو نفسه لا يعرف فى الحقيقة .

أحيانا كان يمضى مع التيار ، وأحيانا عكس التيار
وأحيانا كان يدور حول نفسه ومع كل نتيجة يحصل
عليها من عمله كان يندهش ويفضرب في نفس الوقت ..

وبمرور الوقت تحول انتباه كل الناس حول النهر
الى النظر الى هذا الرجل ومراقبته ومحاوله التنبؤ
بنتيجة ضربته القادمة في الماء .

وأثناء هذا وصل أصدقائى الى الضفة المقابلة
وأخذوا يشاهدونه بدورهم .. كان ظهره فى اتجاههم
فلم يروا وجهه .. لم يروا سوى سترته و (كابه) فقط .
فافتترضوا أنه أنا .. وبما أن حبهم للبهجة والسرور
لايعرف حق أية صداقة أو رابطة فقد بدأوا يضحكون
عليه ويسخرون منه بلا رحمة .

ولم اكتشف خطأهم فى البداية ، بل قلت فى نفسى
« يالهم من أجلاف - كيف يتصرفون هكذا تجاه رجل
لايعرفونه أو يعرفهم » لكننى وقبل أن أنادى عليهم
وأنبههم لخطئهم ، اكتشفت حقيقة الموقف فتسالت
واختبأت خلف شجرة حتى لا يرونى ..

وكم سعدوا وتمتعوا بمحنة هذا الرجل المسكين . .
وعلى مدى أكثر من خمس دقائق أخذوا يتصايحون
ويضحكون ساخرين منه ، حتى فاض الكيل بالرجل
فاستدار ناحيتهم ليوبخهم وكانت المفاجأة حينما رأوا
وجهه !

وسرني كثيرا أن أراهم وقد غرقوا في خجلهم من
منظرهم السخيف وتصرفهم الأحقق . . وأخذوا يعتذرون
للرجل ويوضحون له أنهم كانوا يظنونهم شخصا آخر
يعرفونه ، وأنهم يتمنون ألا يظن بهم الفظاظة وعدم
اللباقة .

انى أذكر أن هاريس أخبرني ذات مرة عندما كان
في بولونيا يستحم في البحر بجوار الشاطئ ، وأحس
فجأة بصفعة قوية على قفاه ، ثم بيد ثقيلة تدفع رأسه
بعنف تحت الماء . . وكاد يختنق وأخذ يصارع بكل قوته
ليخرج رأسه من تحت الماء ، ولكن يبدو أن صاحب اليد
التي كانت تمسك برأسه كان يتمتع بقوة حصان ،
فضاعت كل محاولات هاريس للتخلص منه هباء ،

فاستسلم وتخلي عن الرفس برجليه وحاول أن يتوجه بعقله الى الأشياء الخالدة في الوجود وفي الحياة الآخرة وفي هذه اللحظة أخلى الرجل سبيله فجأة ..

انتفض هاريس على قدميه ونظر حوله يبحث عن مهاجمه . كان القاتل يقف الى جواره يضحك من أعماقه ولكنه ما أن رأى وجه هاريس حتى بدا عليه الارتباك الشديد وقفز للخلف مندهشا وقال في تلثم :

- انى .. انى حقيقة أسالك المغفرة ياسيدى لقد أخطأت و .. وظننتك واحدا من أصدقائي !

وغفر هاريس للرجل ، وقد أحس في قرارة نفسه أنه - أى هاريس - رجل محظوظ لأن هذا الرجل العملاق لم يظنه أحد أقاربه والا كان قد أغرقه فعلا .. !

:: سحر الليل :: ليلاس ::

www.liilas.com/vb3

الفصل الخامس عشر

فن صيد السمك

وصلنا على مرمى من « ريدينج » في حوالى الساعة الحادية عشرة صباحا . ولأن النهر في هذه البقعة قذر وممل ، فإنه لا يحسن بالمرء أن يبقى طويلا في جوار هذه البلدة .

عند هويس « ريدينج » صادفنا أصدقاء لنا في قاربهم البخارى وقد تكرموا علينا فسحبوا قاربنا خلفهم أوه ، كم يكون جميلا أن يسحب قاربك فوق صفحة الماء دونما جهد منك . ان القارب لينساب بنعومة ومرح ، لولا تلك القوارب الصغيرة ذات المجاديف والتي كانت

تعرض طريق قاربنا البخارى - أقصد قارب أصدقائى
الذى يسحب قاربنا - اننا لكى نتجنب الاصطدام بهم
نضطر للابطاء حتى نكاد نتوقف .

ان الأسلوب الذى يسير به أصحاب تلك القوارب
الصغيرة يثير الغيظ فعلا . أوه ، يجب أن يكون ثمة
رادع لهؤلاء الناس . انهم أجلاف يتمتعون بقدر كبير
من الفظاظة . . . انك لتستخدم نغير قاربك حتى تكاد آلاته
تنفجر لكى يتعطفوا ويقلقوا انفسهم بأن يسرعوا فى
الابتعاد عن طريقك . يبدو اننى سأضطر لأن أغرق
أحدهم من وقت لآخر ليكون عبرة للآخرين .

انفصلنا عن قارب أصدقائى البخارى عند بانجورن
. . . وهنا حاول هاريس أن يقنعنى بأن هذا هو دورى
فى التجديف . ولكن هذا الكلام بدالى غير معقول ، فقد
كان ما اتفقنا عليه فى الصباح هو أن أجذف بالقارب
لمسافة ثلاثة أميال من « ريدينج » . حسن اننا الآن
على بعد أكثر من عشرة أميال من « ريدينج » ! بالتأكيد
هذا هو دورهم - هم - فى التجديف .

لكننى لم أستطع أن أجعل جورج وهاريس يرون
الأمر على جليته كما كنت أراه . لهذا ومنعا للجدال
أعسكت أنا بالمجاديف .

تقع مدينة « جورينج » على احدى ضفتى النهر بينما
تقع مدينة « ستريتلاى » على الضفة المقابلة . انهما
بقيعتان ساحرتان ويتمنى المرء لو يقضى فى هذا المكان
بضعة أيام . كنا قد عقدنا العزم - من قبل - على أن
نصل الى « ولنجفورد » فى نفس اليوم . ولكن وجبه
النهر الباسم فى هذه البقعة الساحرة دعانا لأن نقضى
فترة أطول معه فلبينا دعوته . وتركنا القارب عند
الكوبرى ونزلت الى « ستريتلاى » لتناول الغداء . وكان
الأمر يحمل فى حقيقته رغبة فى ارضاء مونتمورينسى
بشكل كبير . . . !

ويقال أن التلال الواقعة على جانبي النهر هنا قد
التحمت معا ذات مرة حتى صُنعت جدارا عبر نهر
التيمس . . وأن النهر انتهى هناك فوق « جورينج »
صانعا بحيرة عظيمة . . اننى لا أستطيع أن أوافق أو

أعترض على هذه الحكاية إلا أنني فقط أرددها كما سمعتها .

ان « ستريتلاي » تعد بقعة أثرية يعود تاريخها - مثل معظم المدن والقرى على هذا النهر - الى أيام البريطانيين والساكسون . أما « جورينج » فهي ليست على نفس القدر من الجمال كستريتلاي وقد لاتجد في نفسك الرغبة في قضاء وقت طويل بها كالذى تتمنى أن تقضيه في ستريتلاي . ولكنها - على أية حال - بلدة جميلة وقريبة من محطة السكة الحديدية في حالة ما اذا أردت أن تتسلل دون أن تدفع فاتورة الفندق .

مكثنا يومين في « ستريتلاي » غسلنا فيهما ملابسنا في البداية - وبناء على نصيحة جورج - حاولنا أن نغسلها بأنفسنا في مياه النهر . لكننا منينا بفشل ذريع . بل بشيء أكثر من الفشل . اننا أصبحنا أسوأ حالا بعد غسلها . كانت ملابسنا - قبل غسلها . غاية في القذارة ، هذا صحيح ، لكن كان من الممكن أن نرتديها على أية

حال • وبعد أن غسلناها في ماء النهر •• حسن ، أن
النهر فيما بين ريدينج وهنلاي أصبح انظف بعد أن
غسلنا فيه ملابسنا فقد تجمعت كل القذارة التي كانت
موجودة فيه وتعلقت بملابسنا •• ١١

وقالت لنا الغسالة التي ذهبنا إليها بعد ذلك في
ستريتلاي أنه لكي نكون عادلين معها فإنه يجب علينا
أن ندفع لها ثلاثة أمثال الأجر الذي يدفع لنفس الكمية
من الملابس ، وأضاف أنه لم يكن غسيلا بل كان أشبه
بعملية الحفر • وبالطبع دفعنا المقاتورة دون أن ننبر
بحرف واحد •

ويعتبر النهر عند مدينتي ستريتلاي و «جورينج»
من مراكز الصيد الكبيرة ، فالنهر في هذه البقعة مليء
بكل أنواع السمك ، ويمكنك أن تجلس وتصطاد طوال
اليوم • بعض الناس يفعلون ذلك ، لكنهم أبدا لا
يحصلون على شيء •• فلم يحدث أن رأيت - مطلقا -
شخصا قد اصطاد شيئا أكثر من سميكات لاتصلح للأكل
أو بعض القطط الميتة • لكن هذا بالطبع لا يحول دون

ممارسة الصيد ! . . . ودليل الصيادين المحليين لا يقول كلمة عن اصطياد شيء ، وكل مايقوله هو أن النهر في هذه البقعة مكان جيد للصيد . ربما شاهده أنه أصبحت مستعدا لتأكيد هذه المقولة .

فلا يوجد مكان في العالم يمكنك فيه أن تمارس الصيد أكثر من هنا . . . بعض الناس يأتون الى هنا ويقضون يوما كاملا في صيد السمك ، وآخرون يمكثون الشهر ، ويمكنك - ان أردت - أن تقضى العام بطوله تصطاد . . . فالنتيجة في كل الأحوال لن تتغير .

يقول « دليل الصيد في نهر التيمس » « يمكنك الحصول على سمك البرش هنا » ولكن الدليل أخطأ في هذه العبارة . إذ أن سمك البرش ربما يكون موجودا - وبكثرة - في تلك البقعة ، بل أنه يمكنك أن ترى أسماك البرش وهي تسبح بأعداد كبيرة بالقرب منك وأنت تمشي على الشاطئ . وقد تأتي وتقف ونصفها العلوي خارج الماء فاتحة أفواهها لتلتقط فتات الخبز . وإذا حدث ونزلت في النهر للاستحمام فإنها تتزاحم

حولك وتضايقك • ولكنها أبدا لا يمكن اصطيادها بدودة صغيرة فى نهاية سنارة أو ما شابه ذلك •

فى الحقيقة أنا لست صيادا ماهرا • كنت قد أوليت هذا الأمر اهتماما كبيرا لفترة ما وكنت قد أحرزت - فيما أتصور - بعض التقدم • ولكن الصيادين الأكبر سنا والأكثر خبرة منى ، قالوا لى أننى لن أفلح أبدا فى هذا المضمار ونصحونى بالتخلى عن هذا الموضوع ••

وأضافوا أننى ألقى الخيط باتقان كاف ، كما يبدو أننى أملك إحساسا جيدا وهدوءا طبيعيا ولكنهم فى نفس الوقت متأكدون أنى لن أكون صيادا ، وهذا لأننى لا أملك قدرا معقولا من الخيال •

فبعض الناس يعتقدون أنه لى تكون صيادا ماهرا فإن كل ما تحتاجه هو القدرة على سرد الأكاذيب دون أن يحمر وجهك •• ولكن هذا الاعتقاد اعتقاد خاطئ • فالقاء الأكاذيب غير الفنية يعتبر أمرا عديم النفع •• فحتى المبتدئين يمكنهم أن يفعلوا هذا • ولكن المهارة الحقيقية تكمن فى سرد التفاصيل الفنية واللمسات

الصغيرة واضفاء جو من الحقيقة على ماتقول . وهذا هو ما يتمتع به الصيادون ذوو الخبرة .

ان أى انسان يستطيع أن يأتى ويقول : « أوه ، لقد اصطدت مساء أمس خمس عشرة دسنة من سمك البرش » ! .. أو يقول : « لقد اصطدت يوم الاثنين الماضى سمكة سلمون مرقطة وزن ثمانية عشر رطلا وطولها أكثر من ثلاثة أقدام من الأنف حتى الذيل » .. وهكذا ، لافن .. ولامهارة فى مثل تلك الأقاويل . انها قد تظهر قدرا من الشجاعة لا أكثر .

لا .. ان الصياد الماهر لا يمكن أن يحكى أكذوبة بهذه الطريقة . بل ان طريقته يجب أن تدرس فى حد ذاتها . انه يدخل بهدوء وقبعته على رأسه ثم يجلس فوق أوثر المقاعد ويشعل غليونه ويأخذ فى التدخين ويترك الشباب الأصغر سنا يتحدثون عن أنفسهم لبعض الوقت . ثم وخلال لحظة صمت يخرج غليونه من فمه ويطرقه عدة طرقات ليخرج منه الرماد ويعلق بقوله :

— لقد حصلت على صيد جيد مساء يوم الثلاثاء الماضى .. ولكن لا يجعل بى أن أحكى لكم عنه ..

فيسألون بشغف :

- أوه ، لماذا ؟

فيقول بثقة وهندوء ودون أدنى ارتعاشة في صوته ،
بينما هو يملأ غليونه بالتبغ ويطلب من صاحب الحانة
كأسا من الشراب :

- لأننى لو فعلت فلن يصدقنى أى منكم !

ويعقب صبارته تلك صمت تام . حيث أنه لا يوجد
بين الحاضرين من يجد فى نفسه الوقاحة ليجادل
النبيل العجوز . وهكذا فإن عليه أن يستمر دون أن
يدفعه أحد ، فيقول بوقار :

- أوه ! اننى ماكنت لأصدق هذا أنا نفسى ان جاء
أى شخص وحكاة لى . ولكنه حقيقى . كنت قد جلست
على الشاطئ طيلة العصر ، ولم أصطد شيئا يذكر سوى
بضع عشرات من سمك السلمون وسلة مملوءة بأسماك
البرش . . . وكنت على وشك اقناع نفسى بالاكتماء بهذا
والعودة الى البيت ، الا انى أحسست فجأة بجذبة قوية

فى خيط السنارة ، فظننت أنها ربما تكون سمكة صغيرة
أخرى وأوشكت أن أشدها ولكنى تلقيت صدمة .. لم
استطع أن أشد الخيط ! واستغرق منى الأمر نصف
ساعة .. نعم نصف ساعة ياسادة ! لاستخرج السمكة
من النهر وكنت أشعر بالسنارة وهى تكاد تنكسر فى أية
لحظة . أخيرا أخرجت السمكة ، وماذا تعتقدون أنى
وجدت ؟ كانت سمكة الحفش (١) ! نعم سمكة حفش تزن
أربعين رطلا تصطاد بسنارة ياسادة ! أجل ، من حقكم
أن تندهشوا .. كأسا أخرى من الويسكى لو سمحت !
ثم يستمر فى الحكاية فيخبرك بمدى الدهشة التى
انتابت كل من رأى سمكته وماذا قالت زوجته عندما
عاد الى البيت ، وعن أحاديث الجيران عن السمكة
الهائلة !

ذات مرة سألت صاحب فندق قريب من النهر عما
إذا كان لا يشعر بالتعب أحيانا من جراء الاسـتماع
لحكايات الصيادين . فقال لى :

(١) سمكة الحفش هى نوع من السمك الكبير يستخرج
منها البيض الذى يصنع منه الكافيار .

– أوه ، كلا ، ليس الآن ياسيدى ، كانت تدهشنى قليلا فى البداية ، ولكنى وزوجتى نستمتع اليهم الآن طول اليوم ، أوه ، لقد تعودنا على هذه القصص ..
تعودنا عليها تماما .. !

أود أن أقص عليكم الآن حكاية شاب عرفته وكان من أكثر من عرفتهم صدقا .. لقد قرر هذا الشاب مرة ألا يزيد عدد الأسماك التى يصطادها – عندما يحكى عنها – إلا بمقدار خمسة وعشرين بالمائة فقط ، فكان يقول لنفسه :

– عندما اصطاد أربعين سمكة ، سأقول للناس أنى اصطدت خمسين .. وهكذا ، لكننى لن أكذب أبدا وأدعى أكثر من هذا ، لن أكذب لأن الكذب شئ كرهه !

ولكن ، ولسوء الحظ ، لم تصلح خطته – فى اضافة خمسة وعشرين بالمائة – فى كل الأحوال لأن الكبر عدد اصطاده فى أى يوم من الأيام لم يزد على ثلاث سمكات .. وبالطبع لا يمكن اضافة خمسة وعشرين بالمائة لهذا

العدد ٠٠ على الأقل لا يمكن هذا بالنسبة لحساب عدد الاسماك ٠٠ لهذا قرر صديقي أن يزيد النسبة الى ثلاثة وثلاثين وثلاث بالمائة ٠٠ ولكن حتى هذه النسبة وجد أنه من الصعب حسابها عندما يكون المحصول سمكة واحدة أو اثنين ٠ وعلى هذا فقد قرر أخيرا أن يزيد الكمية - في ادعاءاته - الى الضعف !

وقد ظل هذا الشاب يسير بهذه الطريقة لمدة شهرين ثم بدأ يشعر بعدم الرضا ٠ فلا أحد يصدق عذما يقول أنه زاد عدد ما اصطاده - في الحقيقة - الى الضعف فقط ٠ وبهذا لم يجن أى مجد بهذه الطريقة ٠ ان محاولته ان يكون أكثر أمانة من الآخرين لم تضر بأحد غيره ٠ فمثلا عندما اصطاد ذات مرة ثلاث سمكات وقال أنه اصطاد ستة ، أحس بالغيرة عندما سمع رجلا - يعلم تماما أنه لم يصطد سوى سمكة واحدة - سماعه يقول للناس أنه قد اصطاد (ستة) من السمك ٠

وهكذا وفي النهاية ، قرر منذ تلك اللحظة قرارا جعله دستوره ، وهو أن يحسب كل سمكة يصطادها

بعشرة سمكات وأن يحرص دائما على أن يضيف عشر سمكات كبداية فمثلا ، اذا لم يكن قد اصطاد أى شيء فإنه سيقول أنه قد اصطاد عشر سمكات . وهكذا وبهذه الطريقة لا يمكن للمرء أن يصطاد أقل من عشر سمكات بأية حال من الأحوال . ثم واذا صادفه الحظ واصطاد سمكة واحدة ، فإنه سيقول أنه قد اصطاد عشرين ، والسمكتان ستصبحان ثلاثين والثلاثة أربعين وهكذا .

كانت فكرة بسيطة وقد وجدها ناجحة تماما . بل كان هناك اتجاه لتعميمها ولكن بعض كبار الصيادين عارضوها وقال انهم قد ينظرون اليها بعين الاعتبار ، ان تضاعف العدد وصارت لكل سمكة تحسب بعشرين سمكة !!

:: سحر الليل :: ليلاس ::
www.liilas.com/vb3

وجورج والكلب مونتمورينسى وحدثنا .. فخرجنا
نتمشى وتوجهنا الى « والنجفورد » .. كان ذلك فى
مساء اليوم الثانى لنا فى ستريتلاى .. وفى طريق
عودتنا دلفنا الى فندق صغير على شاطئ النهر .

توجهنا الى البار وجلسنا امامه ، وكان ثمة رجل
عجوز يجلس عند البار ويدخن غليوننا طويلا منحنيا .
وبالطبع - وبعد برهة قصيرة - بدأنا نتجاذب اطراف
الحديث .

قال لنا ان اليوم كان جميلا ، وقلنا له ان الامس
ايضا كان جميلا ، ثم قال كل منا للآخر ان الغد ربما
سيكون يوما جميلا ايضا .. وأضاف جورج ان
الحاصل هنا تنمو جيدا . ثم ، وبعد هذا الحوار القصير
لا أدري كيف تطرق الحديث الى كوننا غرباء عن هذه
المنطقة والى اننا سوف نغادرها غدا فى الصباح .

مرت بعد هذا الحديث فترة صمت جالت فيها أبصارنا
انا وجورج - خلال القاعة ثم استقرت فى النهاية عند
صندوق زجاجى قديم يعلوه التراب معلق هناك فوق

المدفأة وبداخله سمكة سلمون مرقطة هائلة . وقد ملأتني
هذه السمكة عجبا ، ولأول وهلة ظننتها سمكة
الحفش (١) لفرط ضخامتها .

قال الرجل العجوز وقد لاحظ ما نحملق فيه :

— آه ! انها سمكة ظريفة . . . اليست كذلك ؟

فهممت مندحشا :

— بل عجيبة جدا !

وسأل جورج الرجل العجوز عن وزنها كم يبلغ
بالتقريب ؟ فأجابه الرجل وهو يقوم ويرتدى معطفه :

— ثمانية عشر رطلا ونصف . أجل . . . كان هذا
منذ ستة عشر عاما في يوم مثل العاشر من الشهر
القادم تقريبا . عندما اصطدت هذه السمكة ! . . . لقد
امسكت بها تحت الكوبرى تماما . . . قالوا لى أنها
موجودة بالنهر ، فقلت لهم انى سأصطادها . . . وقد

(١) الحفش (يفتح الحاء وسكون الفاء) نوع من الأسماك
الضخمة يستخرج منها الكافيار .

فعلت ! .. انكم - على ما اظن - لاترون أسماكنا بهذا
الحجم كثيرا هذه الأيام . عمتم مساء ياسادة .. عمتم
مساء ..

ثم خرج وتركنا وحدنا . ولم نستطع أن نرفع
أعيننا عن هذه السمكة . كانت بالفعل سمكة رائعة .
وكنا مازلنا نحملق فيها عندما دخل الحمال الذى كان
قد أوقف عربته - لتوه - أمام باب الفندق ودخل الى
صالة (البار) ونظر بدوره الى السمكة . فاستدار اليه
جورج قائلا :

- سمكة سلمون ذات حجم جيد . اليس كذلك ؟

فرد عليه الرجل قائلا :

- اه ! ربما ستقول انكم ياسيدى .. ربما لم
تكونوا هنا عندما اصطيدت هذه السمكة ؟

فاجبناه فى صوت واحد :

- لا .. اننا غرباء عن هذه المنطقة !

فقال الحمال :

ـ اه ٠٠ اذن كيف يتسنى لكم انن أن تعرفوا
القصة ؟ كان هذا منذ خمس سنوات عندما قمت
باصطياد تلك السمكة !!

فسأله متدهشا :

ـ أوه ! أكنت أنت من اصطاد ذلك السمكة
العظيمة ؟

فقال الرجل العجوز خفيف المقل :

ـ أجل ياسيدى ، اصطدتها من تحت برج الساعة
تماما ، فى عصر أحد أيام الجمعة . كنت قد خرجت
للصيد ، لأصطاد بعض أسماك البرش ، ولم أكن أفكر
مطلقا فى السلمون المرقط . وعندما رأيت هذه السمكة
الهائلة فى طرف سنارتى أصبت بصدمة حقيقية . . فكما
ترون انها تزن ستة وعشرين رطلا . عمتم مساء ياسادة
. . عمتم مساء !!

وبعد خمس دقائق أخرى دخل رجل ثالث ووصف
لنا كيف أنه اصطاد هذه السمكة ذات مرة فى الصباح

الباكر ، ثم خرج . . . وبعدها دخل رجل فى منتصف
العصر تبدو عليه امارات الوداعة والهدوء وجلس هادئا
بجوار النافذة . .

وظللنا صامتين لفترة وأخيرا استدار جورج نحو
الرجل وقال فى تأدب :

- أستمحك عذرا ياسيدى . أرجو أن تغفر لنا
تطلعنا ، اننا غرباء عن هذه البلدة . وسأكون أنا
وصديقى فى غاية الامتنان لو أنك حكيت لنا كيف
استطعت أن تصطاد هذه السمكة السلمون المرقطة المعلقة
هناك !

فرد علينا الرجل مندهشا :

- لماذا ! من أخبركم انى - أنا - من اصطاد سمكة
السلمون هذه ؟

فقلنا بسرعة :

- ان احدا لم يخبرنا ولكننا أحسسنا بطريقة ما انك
أنت الذى اصطدتها .

فرد علينا الرجل ضاحكا :

— انه لشيء مدهش . . مدهش جدا . لأنكم —
والحق يقال — قد وقعتم على الصواب بعينه . . أنا
فعلا اصطدتها . ولكن تخيلوا كيف كان ذلك ! ياسادتي
الأعزاء لقد كان حقا شيئا مذهلا !

ثم أخذ يحكى لنا كيف استغرق منه استخراجها
من الماء نصف ساعة كاملة ، وكيف انكسرت (بوصة)
سنارقه ، وأضاف أنه وزنها بدقة عندما عاد الى بيته
فوزنت أربعة وثلاثين رطلا !

خرج هذا الرجل بدوره ، وما أن غادر المكان حتى
دخل صاحب الفندق فحكينا له عن القصص المختلفة التي
سمعناها عن سمكته . وقد سره هذا كثيرا وغرقنا جميعا
في ضحك من القلب . ثم قال لنا الرجل الصابق وهو
مازال يضحك :

— هل قال لكم كل من « جيم بانى » و « جو ما جلز »
والسيد « جونز » و « بيلى موندرز » العجوز أنه هو
الذي اصطادها ! ها ! ها ! . . ان هذا جميل جدا ها !
ها ! . . أجل انهم من النوع الذى من الممكن أن يصطاد

السمة ويعطوني اياها عن طيب خاطر لأضعها في
بارى ! .. انهم .. انهم ها ! ها !!

ثم بدأ يحكى لنا عن التاريخ الحقيقى للسمة .
وقد ظهر أنه هو الذى اصطادها بنفسه ، منذ عدة
سنوات ونصف عندما كان لا يزال صبيا . ولم تكن هناك
مهارة فى الموضوع ، فالأمر كان حسن حظ بلا حدود .
ذلك الحظ الذى يلزم صبيا تغيب عن مدرسته بدون إذن
وخرج للصيد فى عصر أحد الأيام المشمسة .. بقطعة
صغيرة من الخيط بأخرها سنارة ثبتت بعصا ..

وقال أن احضاره لسمة السلمون الهائلة معه
الى البيت قد أنقذه من علقه ساخنة بالسوط .. وحتى
مدير المدرسة قال أنها تستحق الهروب من عدة دروس
جيدة ..

وخرج الرجل من القاعة عند هذه النقطة فى الحديث
ومرة أخرى استدرنا ببصرنا - أنا وجورج - نحو
السمة المعلقة على الحائط . كانت حقا سمة مذهشة
.. وكلما نظرنا إليها ازداد إعجابنا بها .. وقد



سمكة السلمون العجيبة !

أثارت جورج لدرجة أنه صعد فوق ظهر مقعد لينظر إليها عن كثب .

وانزلق المقعد فجأة وتشبث جورج بعنف بالصندوق الزجاجي لينقذ نفسه ، فسقط الصندوق منسحقا وفوقه جورج والمقعد . . !!

فصرخت محذرا وأنا اندفع نحوه :

- أرجو ألا تكون قد أذيت السمكة ، أم تراك فعلت ؟

فنهض جورج وهو يقول :

- أرجو ألا أكون قد فعلت .

ولكنه فعلها ، كانت سمكة السلمون قد تكسرت الى ألف قطعة، ربما كانوا تسعمائة قطعة فقط فأنا لم أحصها بدقة .

واندهشنا - أنا وجورج - لان سمكة السلمون
قد تكسرت الى كل هذه القطع الصغيرة ، بالطبع كان
هذا الامر سيكون مثيرا للعجب لو ان السمكة كانت
حقيقية. لكنها لم تكن كذلك في الواقع ، فسمكة السلمون
المرقطة ذات التاريخ لم تكن سوى تمثال من الجبس
صنع في باريس !!

الفصل السابع عشر

من ستريتلاى الى اوكسفورد

غادرنا ستريتلاى فى الصباح القالى مبكرين ..
وجدفنا حتى وصلنا الى كالهام ، وهناك قضينا ليلتنا
فى ركن من النهر تستره الأشجار .

ان النهر فى المسافة من ستريتلاى الى والينجفورد
لا يعتبر مشوقا للغاية ، وابتداء من كليف وعلى امتداد
سته أميال كاملة، يسير النهر مستويا دون هويس واحد .
وأعتقد أن هذا هو أطول امتداد منبسط للنهر يمكن أن
تقابله فيما فوق مدينة (بيدينجتون) وقد استغله نادى
اوكسفورد للتجديف .

ولكن ، ويقدر ما يكون غياب الأهوسة مرضيا لمحبي
رياضة التجديف ، بقدر ما يكون محبطا لهؤلاء الذين
ينشدون المتعة بالترحال عبر النهر .

أنا شخصيا مغرم بالأهوسة أشد الغرام .. أنها
تكسر رتابة الرحلة ، فكم هو ممتع الجلوس في القارب
في هدوء بينما هو يرتفع ببطء من الأعماق الباردة الى
امتداد جديد للنهر ذي مناظر جديدة ناضرة ، أو وهو
يهبط الى أسفل هاربا من العالم الى أعماق مظلمة ، ثم
وأنت تنتظر حتى تنزلق البوابات الحديدية الثقيلة منفتحة
بينما يزداد ضوء النهار المتسرب خلال ثغراتها اتساعا
حتى ينفتح النهر باسم أمامك . وأنت تدفع قاربك
الصغير ليخرج من سجنه المؤقت الى أحضان الشمس
المرحبة بك مرة ثانية ..

وستجدهم قوما ظرفاء أقصد هذا الحارس السمين
لبوابة الهويس ، أو زوجته ذات النظرات الوديعة ، أو
ابنته ذات العيون البراقة .. ستجدهم ظرفاء وهم
يحدثونك بأخبار النهر بينما أنت تعبر الهويس . لسوف

تسعد بمقابلة قوارب أخرى لأناس آخرين يعبرون معك
الهويس : أوه ! .. ان التيمس ليفقد الكثير من سحره
ان هو خلا من تلك البوابات المكسوة بالأزهار والتي
نسميها أهوسة ..

ان الحديث عن الأهوسة ذكرنى بحادثة - قرية -
حدثت لى أنا وجورج ذات صيف فى ساحة هامبتون ..

كان يوما مجيدا ، حيث كان الهويس مزدحما ..
وكما يحدث دائما على طول النهر ، كان هناك مصور
ياخذ صورا لنا جميعا ونحن نرقد فوق الماء الصاعد ..

لم الحظ ما يحدث من البداية ، لهذا اندهشنت
لرؤيتى جورج وهو يفرد سرواله ويصفف شعره
بسرعة ويضع (كابه) على مؤخرة رأسه .. ثم وقد
اكتسى وجهه بتعبير هو مزيج من الألفة والحزن
الخفيف ، ويجلس بوداعة محاولا اخفاء قدميه ..

كان اول ماخطر بذهنى هو انه ربما وقع بصره
على سيدة ممن يعرفهن وأخذت أدور ببصرى لأرى من
تكون .. كان كل الناس قد تحولوا فجأة الى تماثيل

حجرية ! ٠٠ كانوا جميعا قد وقفوا أو جلسوا متخذين
أكثر الأوضاع عجبا و غرابة ٠٠ كل الفتيات كن يبتسمن
٠٠ وكن جميلات وهن يفعلن ذلك ٠٠ وكل الرجال
اكتست وجوههم بأمارات الجدية والنبل ٠٠ !

وأخيرا ومضت الحقيقة فى عقلى وخشيت أن يكون
الوقت المناسب قد فاتنى . كان قاربنا هو أول قارب
فى العبور . ووجدت أنه من غير اللائق أن أفسد صورة
الرجل ، فاستدريت بسرعة واتخذت وضعا مناسبا عند
أنف القارب - أقصد مقدمته - حيث ملت بلا مبالاة فوق
مخطاف القارب لأكسب الصورة مظهرا حيويا فيه قوة ،
ورتبت شعري وجعلت خصلة تتدلى فوق حاجبى وأكسبت
وجهى تعبيرا جادا ممزوجا بمسحة سخرية قيل لى أنها
تناسبنى !

وبينما نحن نقف مستعدين للحظة الحاسمة . از
بى أسمع من يصيح خلفى قائلا :
- هيه ! راقب أنفك !

ولم أستطع أن أستدير للخلف لأرى ما يحدث أو

أعرف أنف من تلك التى يجب أن تراقب .. ولحت
بطرف عيني أنف جورج . كانت بخير - على الأقل لم
يكن بها ما يمكن اصلاحه - ونظرت الى أسفل - الى أنفى انا
- ولكنها هى الأخرى بدت كما يتوقع المرء أن تكون .

ولكن الصوت جاءنا اقوى هذه المرة :

- انظر الى أنفك أيها الغبي !

ثم سمعنا صوت آخر :

- ادفعا أنفكما للخارج .. ألا تتحركان انتما ..

انتما يا من بصحبة الكلب !

لم أجرؤ - لا انا ولا جورج - على الاستدارة لأن
أصابع الرجل كانت على زر الكاميرا فى وضع
الاستعداد .. والصورة قد تلتقط فى أية لحظة ..
ولكن ، هل كنا نحن من ينادون عليهما ؟ .. وماذا
أصاب أنفينا ؟ .. ولماذا علينا أن ندفع أنفينا للخارج ؟
.. الآن صار كل من فى الهويس يصرخون ، وصاح
صوت قوى من الخلف قائلاً :

- انظر الى قاربك ياسيدى ، أنت يا من ترتدى

كأيا أحمر في أسود ، ان لم تسرعا فان جثثكما هما
اللتان ستظهرا في الصورة .

التفتنا بسرعة فالفينا مقدمة قاربنا وقد انحصرت
تحت المزلاج الخشبي للهويس بينما كان الماء يرتفع رافعا
كل جوانب القارب معه تاركا مقدمته غارقة . . كان من
الممكن ان نلقى الهلاك في اللحظة التالية لولا اننا أخذنا
مجدافا وفي سرعة البرق دفعنا جانب الهويس دفعة
قوية حررت القارب وألقت بنا منبطحين على ظهرينا . .
ولم نظهر - أنا وجورج - بشكل جيد في الصورة
. . بالطبع كان من سوء حظنا أن الرجل التقط الصورة
التعسة في اللحظة التي كنا فيها منبطحين على ظهرينا
وعلى وجهينا تعبير أبله . . بينما كانت أرجانا تتحرك
بجنون في الهواء .

وهكذا كانت أقدامنا هي بالتأكيد البطل الرئيسي في
الصورة . في الحقيقة هي لم تترك مكانا إلا للقليل
الذي يظهر الى جوارها فقد كانت تملأ المواجهة تماما
وخلفها يمكنك أن ترى أجزاء صغيرة من القوارب
الأخرى التي كانت بجوارنا . .

وبالطبع كان كل ما عداها يبدو قافها وصغيرا الى
جوار أقدامنا التي احتلت أهم ركن في الصورة . لهذا
شعر بقية الناس بالخجل ، ورفضوا أن يشتروا نسخا
من تلك الصورة ..

حتى أن أحد أصحاب القوارب البخارية – والذي
كان قد أوصى بست نسخ – رفض أن يتسلمها أو أن
يدفع بنسأ واحدا من ثمنها عندما رأى النتيجة النهائية
للتصوير . وقال أنه من الممكن أن يأخذ هذه الصور
لو أن أى انسان يستطيع أن يريه ولو جزءا من قاربه ،
ولكن أحدا لم يستطع فقد كان قاربه يختبئ في مكان
ما خلف قدم جورج اليسرى !

وغلف الموضوع كله جو من التعاسة . فقد طالبنا
المصور أن يشتري كل منا – أنا وجورج – ستة نسخ
من الصورة بما أن تسعة أعشار الصورة يخصنا نحن
ولكننا رفضنا وقلنا أننا لم نكن نريد على الإطلاق صورة
بالحجم الكامل ولكننا كنا نحب فقط أن نلتقط صورتنا
ونحن معتدلين .. !

أخذت الأرض - حول النهر من والينجفورد الى
دوشستر - تزداد امتلاء بالثلال الجميلة وتزداد جاذبية
•• وتقع دو شستر على مسافة نصف ميل من النهر ،
ومن الأفضل لو نحن تركنا القارب بالقرب من الهويس
ثم نسير عبر الحقول فى تلك المنطقة ، وهى بقعة هادئة
وجميلة وقديمة • تقبع فى صمت وسكون و •• نعاس •

يتخذ النهر حول « كليفتون هامبدن » - وهى قرية
رائعة الجمال هادئة قديمة الطابع وتحفها الأزهار -
منظرا غنيا رائعا •• وفى تلك القرية فندق صغير قديم
يقع الى اليمين من الكوبرى على أطراف القرية ، وهذا
الفندق له شكل كتاب الحكايات من الخارج وداخله
أشبه - هو الآخر - بالحكايات القديمة !

فى الحقيقة هو لا يمكن أن يكون مكانا لأنقا ببطة
من بطلات القصص الحديثة • ان بطلة الرواية الحديثة
«طويلة كالهة» وهى دائما ترتفع بقامتها الى أقصى ارتفاعها
•• وفى هذا الفندق القديم الطابع ، لابد أن رأسها كان
سيرتطم بالسقف عند كل محاولة منها لتفعل هذا •

استيقظنا مبكرين فى صباح اليوم التالى اذ كنا نود ان نصل أوكسفورد بحلول العصر . . انه لمن المدهش مدى التبكير فى الاستيقاظ عندما ننام فى الخلاء . . ان المرء لا يطمع فى خمس دقائق من النوم أكثر مما ينام راقدا ملفوفا ببطانية وقد توسد حقيبة جلدية وكأنه ينام على فراش من ريش النعام . انتهينا من تناول الافطار وعبرنا هويس كليفتون فى حوالى الثامنة والنصف صباحا .

ومن كليفتون وحتى بلوغ الهويس التالى ، كانت الأرض حول النهر منبسطة وغير مشوشة . ولكن بعد هذا يتحسن المنظر ثانية . لدرجة أن الهويس والطاحونة عند (افلاى) يعد ان من الموضوعات المفضلة لدى الرسامين المحبين للنهر . . ولكن المنظر الحقيقى يبدو أقل جمالا من صورته . قليل جدا من الأشياء فى هذا العالم التى تبدو على نفس بهاء صورتها وجمالها . . عبرنا هويس « لفلاى » فى حوالى الثانية عشرة والنصف ، ثم نطلقا القارب وأعدنا كل شئ للرسو واندمجنا فى العمل طوال الميل الاخير . .

وتعتبر المسافة بين افلاي وأوكسفورد أصعب جزء
فى النهر على ما أعلم . . فأنت فى حاجة لأن تكون
مولودا فى هذه البقعة كى تحسن فهمها . فبرغم أنى
جئت الى هنا عدة مرات ، الا أنى حتى الآن لاأستطيع
السيطرة عليها . . ففى البداية ستجد التيار يدفعك
الى الضفة اليمنى للنهر ثم يتغير فيدفعك للضفة
اليسرى . . ثم يسحبك الى الوسط ويجعلك تدور حول
نفسك ثلاث مرات ثم يدفعك للامام ثانية ودائما ينتهى
بمحاولة تمزيقك اربا بأربا يدفعك للاصطدام ببارجة !

ونتيجة لهذا التخطيط وقعنا فى طريق عدة قوارب
أخرى وبالطبع قرع أسماعنا عدد لا بأس به من الألفاظ
البذيئة . .

انى لا أعرف سببا لهذا ، ولكن دائما ماتكون الحالة
النفسية لراكب النهر سيئة جدا . ان القليل من المشاكل
التي تواجهك وانت على البر ولا تلقى اليها بالا قد
تجعلك فى منتهى الغضب عندما تكون فى قارب على
صفحة النهر . . فأنا مثلا اذا تصرف أى من جورج

أو هاريس بحماقة أعمى ونحن على البر ، غالبا ما أقابل
تصرفهما بابتسامة هادئة ، ولكنهما عندما يتصرفان
بطريقة غبية ونحن على صفحة النهر ، فأنسى أواجههم
بأقذع الألفاظ ، وعندما يعترض طريقى أحد القوارب
أشعر برغبة فى أن أحمل مجدافى وأقتل به كل من بهذا
القارب من أشخاص !

ان هواء النهر غريب على الحالة النفسية يجعل
- فيما أعتقد - أكثر الناس هدوءا ووداعة على البر .
يصبحون أكثر الناس تعطشا للدماء عندما يصبحون
فى قارب فوق صفحة النهر . .

الفصل الثامن عشر

القوارب النهرية

قضينا يومين سعيدين جدا في أوكسفورد وان كانت شوارع المدينة مـلأنة بالكلاب • حتى أن مونتمورينسي خاض إحدى عشرة معركة في اليوم الأول • وارتفع عدد المشاجرات الى أربع عشرة في اليوم الثاني ، حتى ظننا أن روحه ستصعد الى بارئها • •

يعتبر استئجار قارب والتجديف به عبر النهر في أوكسفورد من الرياضيات المحببة حتى بين أكثر الناس ضعفا وكسلا • • وبالطبع هي النزهة المفضلة لدى هؤلاء الذين يتمتعون بقدر عال من النشاط والحيوية •

وليس من المستحب دائما أن تجدف مع التيار ، فقد تلقى قدرا أكبر من الرضا لو أنك جدف ضد التيار ، واستطعت رغم ذلك أن تشق طريقك في النهر هذا على الأقل ماكنت أشعر به وأنا أراقب جورج وهاريس وهما يجاهدان في التجديف ضد التيار بينما أنا أمسك المدفة لهما .

ولهؤلاء الذين يفكرون في جعل أكسفورد نقطة البداية لرحلتهم النهرية أقول : «خذوا قواربكم الخاصة» فصحیح أن القوارب التي تؤجر لهذا الغرض فيما فوق مدينة « مارلو » تعتبر - أجمالا - قوارب جيدة ، وهي محكمة الحماية ضد الماء ، ومادامت تستخدم بعناية فنادرا ماتنكسر أو تفرق .

كل هذا صحيح وجيد ، إلا أنها ليست جميلة المظهر وغير مزخرفة . أن القوارب التي تؤجر في هذه المنطقة ليست من النوع الذي يمكنك أن تزهو بنفسك فيه أو يشعرك بأهميتك . أنها تضع حدا في الحال لأي شعور من هذا القبيل . وأعتقد أن هذه هي الفضيلة الأساسية بل الوحيدة فيها .

ان الرجل فى القارب المستأجر يفرض عليه أن يكون متواضعا وخجولا . فهو يسير بقاربه على الجانب المظلل تحت الأشجار . كما يجب أن يقطع معظم سفره فى الساعات الأولى من الصباح ، أو فى الساعات الأخيرة من الليل ، عندما لا يكون هناك كثير من الناس لينظروا اليه . . وان صادف هذا الرجل أحدا يعرفه فإنه سرعان ما يتجه نحو الشاطئ ويختبئ خلف الأشجار . . !

اننى أذكر انى كنت واحدا فى جماعة قررت استئجار قارب نهري - ذات صيف - لتمضية بضعة أيام فى نزهة نهريه . . ولم يكن أحد منا قد رأى قاربا من القوارب النهرية التى تؤجر من قبل ، ولم نتعرف عليها عندما شاهدناها لأول مرة .

كنا قد أرسلنا برقية بأسمائنا نطلب قاربا للأيجار ، وعندما توجهنا حاملين حقائبنا الى مرسى القوارب ، وأعلنا عن أسمائنا قال لنا صاحب المرسى :

- أوه ، أجل أنتم الجماعة التى أرسلت لى تطلب

قاربا • كل شيء جاهز وعلى مايرام •• يا جيم أحضر
لهم • فخر التيمس • !

غاب الصبى عن أبصارنا ثم عاد بعد خمس دقائق
وهو يجاهد فى قطعة خشبية قديمة بدت وكأنها انتزعت
من مكانها فى التو ، وبدت وكأنها انتزعت باهمال
فأصيب باصابات لاداعى لها •

كانت أول فكرة خطرت ببالى هى أن هذا الشيء
هو أحد الآثار الرومانية ، أشار ماذا ؟ لا أعلم •• ربما
كانت ما تبقى من تابوت قديم • فالمنطقة المحيطة بأعمال
نهر التيمس غنية بالآثار الرومانية • ولهذا بدت لى
الفكرة معقولة وقوية الاحتمال •• ولكن أحد أصحاب
العقول المستنيرة فى جماعتنا - وكان عالما - اعترض
على الفكرة وقال أنه يبدو بجلاء حتى لذوى الذكاء
المحدود ، أن هذا الشيء الذى عثر عليه الصبى كان
بقايا حوت •• وأشار الى عدة أشياء موجودة فى هذه
البقايا تؤكد أنها لحوت !!

ولكى نضع حد لهذا الجدل سألنا الصبى وقلنا له :

- لا تخف .. فقط أخبرنا بالحقيقة هل هذه بقايا
عظام حوت أم أنها آثار تابوت روماني قديم ؟ !
**فأجابنا الصبي بأن هذا الشيء انما هو « فخر
التيمنس » .**

وفي البداية اعتقدنا أن هذه الاجابة كانت مداعبة
من الصبي لنا فضحكنا ونفحه احدنا بنسين مكافاة على
ظرفه .. ولكنه عندما أصر على تكرار النكتة طويلا بدأنا
نضيق به وقال له قبطاننا بحدة :

- تعال هنا يا بني .. تعال ! .. كفانا ماسمعنا
من هراء ، خذ هذا البرميل بعيدا واحضر لنا قاربا
حقيقيا !

وجاءنا صانع القوارب بنفسه وقال لنا كلمته
كخبير ، فقال أن هذا الشيء كان بالفعل قاربا .. بل
هو في الحقيقة القارب الذي تم اختياره ليحملنا في
رحلتنا عبر النهر .

واعترضنا على هذا بشدة وقلنا له أما كان من
الممكن على الأقل أن تغسله أو تطليه بلون أبيض لتداری

قبح منظره . وحتى نستطيع أن نفرق بينه وبين قطعة
من حطام سفينة . . لكن الرجل لم يكن يرى فيه أى
عيب ، بل أنه ضاق بتعليقاتنا هذه وقال أنه قد تخير
لنا أفضل قارب يمكنه تقديمه . . وكان يتصور أننا يجب
أن نكون أكثر شكرا وامتنانا له من ذلك . وأضاف أن
« فخر التيمس » هذا قد استخدم وهو على حالته هذه
طوال الأربعين سنة الماضية ولم يحدث - على حد
علمه - أن اشتكى منه انسان . وهو صانع القوارب -
لا يدري لماذا يجب أن نكون نحن أول من يفعل ذلك . .

ولم نجادله أكثر من هذا .

وبدأنا فأحكمنا تثبيت - هذا الشيء الذى يدعى
قاربا - بواسطة قطع من السلك ولصقنا ورق الحائط
على الأجزاء السيئة المظهر منه ، ثم تلونا صلاتنا
وخطونا داخله . .

لقد كلفنا استئجار هذا القارب لستة أيام خمسة
وثلاثين شلنا بينما كان يمكننا أن نشتريه من أى فرد
بأربعة شلنات فقط !!

:: سحر الليل :: ليلاس ::

www.liilas.com/vb3

الفصل التاسع عشر

رحلة العودة

تغير الطقس فجأة في اليوم الثالث .. وبينما كنا نشرع في رحلة العودة من أوكسفورد كانت السمام تعطر بغزارة .

ان النهر ليصبح مجرى ذهبيا ساحرا حينما تلمع أشعة الشمس الساطعة على أمواجه المتراقصة .. وعندما تلون جذوع الأشجار الرمادية بلون الذهب .. وعندما تضع الشمس ابتسامتها الدافئة على وجه الغابات المظلمة الباردة وتلون الجدران والقناطر بلون الفضة .. وتضفي بريقها على كل قرية صغيرة ، وتبعث

الجمال في كل مر أو حقل صغير * * وعندما تشرق
الشمس مزجة فوق أشعة المراكب وتحيل الهواء الى
نسمات ناعمة حنون *

ولكن النهر يصير مكانا حزينًا خاليًا من البهجة
حينما تكتسوه الظلمة والبرودة * * وعندما ينهمر المطر
بلا توقف فوق أمواجه الداكنة البطيئة بصوت ضعيف كانه
صوت امرأة تبكي في حجرة مظلمة مجهولة * * بينما
الغابات كلها سوداء صامتة يلفها الحزن * * والأشجار
تقف على ضفة النهر وكأنها أشباح * * أشباح خرساء
ذات عيون وقحة كأنها من صنع الشيطان !

ان ضوء الشمس هو دماء الحياة تسري في شرايين
الطبيعة * * بل ان أعما الأرض لترمقنا بعيون غاب بريقها
وانطفأ نور الحياة فيها ان هي فقدت أشعة الشمس * *
وهي - الأرض - تسبغ علينا حزنها فتصير بدورنا
محزونين * * وهي لاتبدو مهتمة بنا أو حتى تعرفنا -
نحن أبناءها - فنصير كآرملة رحل عنها زوجها الذي
تحبه * * يلعب أطفالها يدها ويتطلعون الى عيونها لكنهم
يعودون بلا ابتسامة منها *

جدفنا طوال هذا اليوم تحت الأمطار ويا له من
مجهود تعس . . في البداية صممنا على أن نتمتع
بالتجديف تحت المطر . وقلنا أنه تغيير وأننا كنا نود
أن نرى النهر في كل حالاته ، بالإضافة الى أننا لم
نكن نتوقع أو نحب أن تظل الشمس مشرقة في كل أيام
الرحلة وقلنا : ان كل شيء في الطبيعة جميل حتى
دموعها !!

وبالفعل حاولنا أن نستمتع بالعمل في هذا الطقس
- أنا وهاريس - لبضعة ساعات . . بل أننا أخذنا نغنى
أغنية عن حياة الرحالة وكيف كانت هذه الحياة -
المقترحة على المواصف والأمطار بنفس القدر الذي
تحيا فيه أشعة الشمس الدافئة - كيف كانت جميلة
ومثيرة . . وكيف أن الرحالة كان يستمتع بهطول المطر .
وكم منحه هذا المطر من خير ، وكيف كان يضحك من
هؤلاء الناس الذين لا يحبون الأمطار . . أما جورج
فقد واجه الموقف بجدية أكثر فأسرع يمسك بمظلته
ويفتحها لتقيه بعض الشيء من المطر المتساقط .

وضعنا على القارب غطاءه قبل الغداء ، واحتفظنا

به هكذا طوال عصر اليوم تاركين فتحة صغيرة عند مقدمة القارب حتى يستطيع أحدنا أن يجذف منها ويرقب الطريق . وقطعنا ونحن على هذه الحال مسافة تسعة أميال قبل أن نتوقف عند حلول المساء .

انى لا أستطيع أن أؤكد - بأمانة - أننا قضينا أمسية سعيدة . . فالامطار كانت تنسكب بلا توقف وكل شيء فى القارب صار مبتلا . ولم يكن العشاء طيبا . . فاللحم البارد لا يكون شهيا عندما لا تكون جائعا . . وأحسنا بأننا كنا نود لو تناولنا أكلة دافئة فى مطعم أنيق ، حتى أن هاريسلقى بقطعة اللحم البارد الى مونتمورينسى ، الذى شعر باهانة بالغة من جراء هذه الفعلة فترك قطعة اللحم فى كبرياء وتركنا وجلس وحيدا عند طرف القارب الآخر .

قضينا ساعة ونصف بعد العشاء نلعب الورق الى أن شعرنا بالملل ثم خلطنا كأس شراب لكل منا وجلسنا نتحدث . . حكى لنا جورج عن رجل كان يعرفه ، كان يعبر النهر منذ عامين وحدث أن نام فى الخلاء فى قارب

رطب في ليلة شبيهة بليلتنا هذه تماما . فأصيب بحمى ولم يكن هناك ما يمكن أن ينقذه منها فمات متأثرا بالأمه العظيمة . بعد مرض استمر عشرة أيام . . . وأضاف جورج أن الرجل كان في ريعان الشباب وأنه كان يستعد للزواج . . . وأخيرا قال جورج أن هذا الحدث كان من أكثر الأشياء حزنا في حياته وأنه لن ينسأ طول حياته إلى أن يموت ويفارق هذا العالم .

وذكرت لكم القصة الحزينة هاريس بصديق من أصدقائه كان جنديا . . . نام في الخلاء تحت غطاء في ليلة مطيرة في (ألدرشوت) . . . ليلة شبيهة بليلتنا هذه تماما . . . قال هاريس :

— . . . واستيقظ صديقي في الصباح وقد تيبست عظامه حتى أنه لم يعد يستطيع أن يمشى مشية صحيحة بعد هذه الليلة .

وأضاف هاريس أنه سوف يقدمنا إلى صديقنا إذا عندما نعود إلى لندن ولكم ستقدمي قلوبنا لرؤية هذا الشاب المسكين وهو لا يمشى بطريقة صحيحة !

وبالطبع قادنا هذا الكلام الى بعض الأحاديث
الطريفة عن متاعب الإصابة بالبرد . فقال هاريس أنها
ستكون معضلة كبيرة لو أن أحدنا أصيب بالبرد فنحن
فى بقعة بعيدة عن أى طبيب .

وبعد هذه الأحاديث شعرنا بحاجة ماسة الى شيء
مبهج وظريف ، وفى لحظة ضعف منى اقترحت على
جورج أن يخرج آلة البانجو ويسمعنا بعض الأغنيات
الهزلية ..

ولم يكن جورج فى حاجة لأى حث فقد أخرج الته
فى الحال وبدأ يغنى لنا أغنيته :

.. « العينان السوداوان الحبيبتان » ..

.. « عينان براقتان جميلتان »

كنت دائما أتصور « العينان السوداوان » أغنية
هزلية عادية .. حتى هذا المساء ، ان الحزن الذى
استطاع جورج أن يستخرجه منها أذهلنى حقا .

وصارت الرغبة التى تلح علينا - أنا وهاريس كلما

أمعن جورج في أغنيته هي أن يرتقى كل منا على صدر
الآخر وينخرط في البكاء • ولكننا - وبمجهود عظيم -
حبسنا دموعنا وجلسنا نستمتع في صمت •

وبعد أن وصل جورج إلى المقطع الأخير حاولنا
بألم عظيم أن نشعر أنفسنا ببعض البهجة ، فملأنا
كؤوسنا واشتركنا في الغناء ، فبدأ هاريس بصوت
مرتعش وتبعته أنا •

عينان سوداوان حبيبتان

ياللروعة •• يا للعجب •• !!

وهنا توقفنا عن الغناء ففي حالتنا البائسة تلك لم
يكن من الممكن أن نستمر • كان هاريس ييكسي كطفل
صغير ، حتى مونتمورينسي أخذ يلبح حتى ظننت أن
فكه يكاد يتحطم !

وحيث أنه لم يكن ثمة ما نفعله فقد قررنا أن ننام ••
وهكذا خلعنا ملابسنا وتكورنا في قاع القارب لمدة
ثلاث أو أربع ساعات ، وقد حاولنا استجلاب النوم لكننا

لم نحظ الا بنوم متقطع حتى صارت الساعة الخامسة
تماما . وعندها استيقظنا جميعا وتناولنا افطارنا .
وكان اليوم التالي كسابقه . لم تكف السماء عن
ارسال أمطارها وجلسنا ملتفين بمعاطف المطر قابعين
تحت غطاء القارب الذى أخذ ينساب فوق صفحة الماء
ببطء .

حاول أخذنا - لا أذكر الآن من كان على وجه
التحديد وان كنت أظنه أنا شخصا - حاول أن يغنى
اغنيات لا معنى لها عن الروح الفتية للطبيعة وعن
الاستمتاع بالمطر . . وبالطبع لم يكتب لهذه المحاولة
أى نصيب من النجاح .

كان هناك أمر اتفقنا عليه جميعا ومنذ البداية الا
وهو ، أنه مهما حدث فسنواصل رحلتنا حتى النهاية
مهما كانت تلك النهاية حزينة أو مؤلمة . . لقد خرجنا
لنستمتع برحلة لمدة اسبوعين على النهر . ولسوف
نقضى الأسبوعين كاملين حتى لو قتلنا هذه الرحلة
فى النهاية . . انها لو فعلت ذلك فستكون نهاية حزينة
بالنسبة لأقاربنا ، ولكن لاحيلة لأحد فى هذا . .

وقال هاريس مشجعا :

- لم يبق سوى يومين ، ونحن شباب وأقوياء
وقد نمر من كل هذا بخير وسلام !

وعندما بلغت الساعة الرابعة بعد الظهر تقريبا . .
بدأنا نناقش خططنا للمساء . ولما كنا قد جاوزنا بلدة
« جورينج » بفيل فقد قررنا أن نستمر في التجديف
حتى نصل الى « بانجبورن » حيث نقضى ليلتنا .

وتمم جورج :

- أه . . سنقضى ليلة أخرى سعيدة !

وجلسنا معا نفكر في تلك الليلة ، كان يجب أن نصل
بانجبورن في الخامسة ، ثم ننتهى من تناول وجبتنا
المسائية في السادسة والنصف - مثلا - وبعد هذا
يمكننا أن نتمشى تحت الأمطار حتى موعد النوم أو أن
نجلس في حانة صغيرة ذات ضوء شاحب دون أن نفعل
شيئا على الإطلاق !

وفي اللحظة التالية - وعلى حين غرة - اندفع
جورج صائحا وهو يرمق القارب بغضب وغيظ :

- اسمعوا ، اذا لم نكن قد عقدنا العزم بعد على الموت في هذا القابوت البارد .. فانه يمكننا اللحاق بقطار لندن الذي يتحرك بعد الخامسة من محطة (بانجبورن) حيث يمكننا ان نصل لندن في جو مريح ودافئ ، ونقضى امصيتنا في مسرح « الهمبرا » ثم نتناول عشاء خفيفا قبل ان نعود للبيت !

ولم يفتح اى منا فمه بعد هذا .. وصار كل منا يرى افكاره غير البريئة وقد انعكست على وجهى رفيقيه .. وفي صمت اخرجنا حقائبنا من القارب وفحصناها ونظرنا في كل اتجاه على النهر لتتأكد من ان احدا لايرانا ولم يكن هناك احد غيرنا !

بعد هذا بعشرين دقيقة ، كان هناك ثلاثة اشباح يزحفون في الظلام يتبعهم كلبهم مطاطنى الرؤوس خجلا وهم خارجون من القارب في طريقهم الى محطة القطار وكانوا يرتدون احذية جلدية سوداء متسخة ، وكانت ستراتهم وسراويلهم في غاية القذارة .. وكانت معاطفهم رثة ممزقة .. ويحمل كل منهم مظلة في يده !

لم تكن لدينا الشجاعة لنقول الحقيقة لحارس
القوارب في مرسى بانجورن ، فكذبنا عليه وتركنا له
القارب بكل محتوياته تحت مسئوليته قائلين أننا نريده
جاهزا للبحار في تمام التاسعة صباحا ، وإذا .. إذا
- هكذا قلنا-إذا حدث أى شيء يمنع مجيئنا في الصباح
فسنبعث له رسالة بهذا ..

وصلنا لندن في الساعة مساء . وعلى الفور دلفنا
الى مطعم صغير - كنت أعرفه - حيث تناولنا وجبة
خفيفة ثم تركنا مونتمورينسى هناك بعد أن طلبنا اعداد
عشاء لنا في العاشرة والنصف ثم خرجنا في طريقنا
الى مسرح الهامبرا ..

وعند المسرح اكتشفنا أننا محط الأنظار .. في
البداية ظن الرجل القابع في مكتب التذاكر أننا (السحرة
العالميون القادمون من جبال الهمالايا) .. وقال لنا
أننا يجب أن ندخل من باب الممثلين . وأضاف : أننا
قد تأخرنا عن موعدنا نصف ساعة .. الا أننا تمكنا
أخيرا من اقناعه أنه قد أخطأ في ظنه وأننا لسنا سحرة ،

فأخذ منا النقود وأعطانا التذاكر وتركنا نمر من
الباب ..

وفي داخل قاعة المسرح نلنا مزيدا من النجاح .
فقد كانت وجوهنا التي لوحتها الشمس وملابسنا
الغريبة محط نظرات الاعجاب من الحاضرين . أوه ..
كم كانت لحظات مجيدة !

غادرنا المسرح مبكرين واتخذنا طريقنا الى المطعم
حيث كان العشاء معدا في انتظارنا . وقد استمتعت
بهذا العشاء كثيرا .. فطوال عشرة أيام ظللنا نحيا على
اللحم البارد والكعك والخبز الجاف والمربى .. أما
الآن فرائحة النبيذ .. والصلصة الفرنسية ورؤية
الملابس النظيفة وأرغفة الخبز الساخنة الطويلة .. كل
هذه الأشياء كانت تطرق باب معدتنا وكأنها زوار
مستحبون .

أكلنا وشربنا في صمت حتى حانت اللحظة التي
عندها مددنا أرجلنا تحت المنضدة في استرخاء
واخيرا سكبت صوت الشوك والسكاكين وتنفسنا في
شعور بالراحة والسعادة ..

بعد هذا انحنى هاريس - الذى كان يجلس بجوار
النافذة - واطل على الشارع من جانب الستارة ..
كان الشارع يبدو مظلماً بينما لهب المصابيح الزيتية
يتراقص مع الريح .. والمطر يتساقط فى البرك التى
صنعتها المياه من قبل .. والقليل من الناس المبطلين
بعاء المطر يهرولون وقد انكمشوا تحت مظلاتهم .. فقال
هاريس وهو يمد يده لياخذ كأسه :

- لقد استمتعنا برحلة طيبة يا أصحاب .. وانى
لأقدم عميق شكرى لأبينا العجوز « نهر التيمس » .. الا
أنى وفى نفس الوقت أعتقد أننا قد فعلنا الصواب
بتخلينا عن تكملة الرحلة فى الوقت المناسب .. فهيا ..
وهلموا نشرب نخب ثلاثة رجال يجلسون بعيداً عن
القارب !

وقف مونت مورينسى على قدميه الخلفيتين ونظر من
خلال النافذة الى الليل المطير ثم أطلق صيحة حاسمة
قصيرة تعلن موافقته الحارة على هذا النخب .. !!

الفهرس

مقدمة.....	٩
التخطيط لقضاء العطلة (١).....	١١
التخطيط لقضاء العطلة (٢).....	٢٣
دراسة احتياجات الرحلة.....	٣٥
مشاكل الطعام وتحزيم الأمتعة.....	٤٧
...وبدأنا الرحلة.....	٦٧
التيه في قصر هامبتون.....	٨١
عن الأغنيات الهزلية.....	٨٩
الليلة الأولى في القارب.....	١٠٥
الصباح التالي.....	١١٩

١٣٩	مغامرات مع قارب وعلبة من الصفيح
١٤٩	مونتيمور ينسى
١٦٣	سر اختفاء هاريس واليخلى الأيرلندى
١٧٩	هاريس وحيدا فى القارب
١٩٥	رياضة التجديف
٢١٣	فن صيد السمك
٢٢٧	معلومات أخرى عن فن صيد السمك
٢٣٩	من ستريتلاى إلى أكسفورد
٢٥١	القوارب النهرية
٢٥٧	رحلة العودة

:: سحر الليل :: ليلاس ::

www.liilas.com/vb3

رقم الايداع ١٠٥٦٠ / ٩٧

الترقيم الدولى X - 5444 - 01 - 977 I.S.B.N.